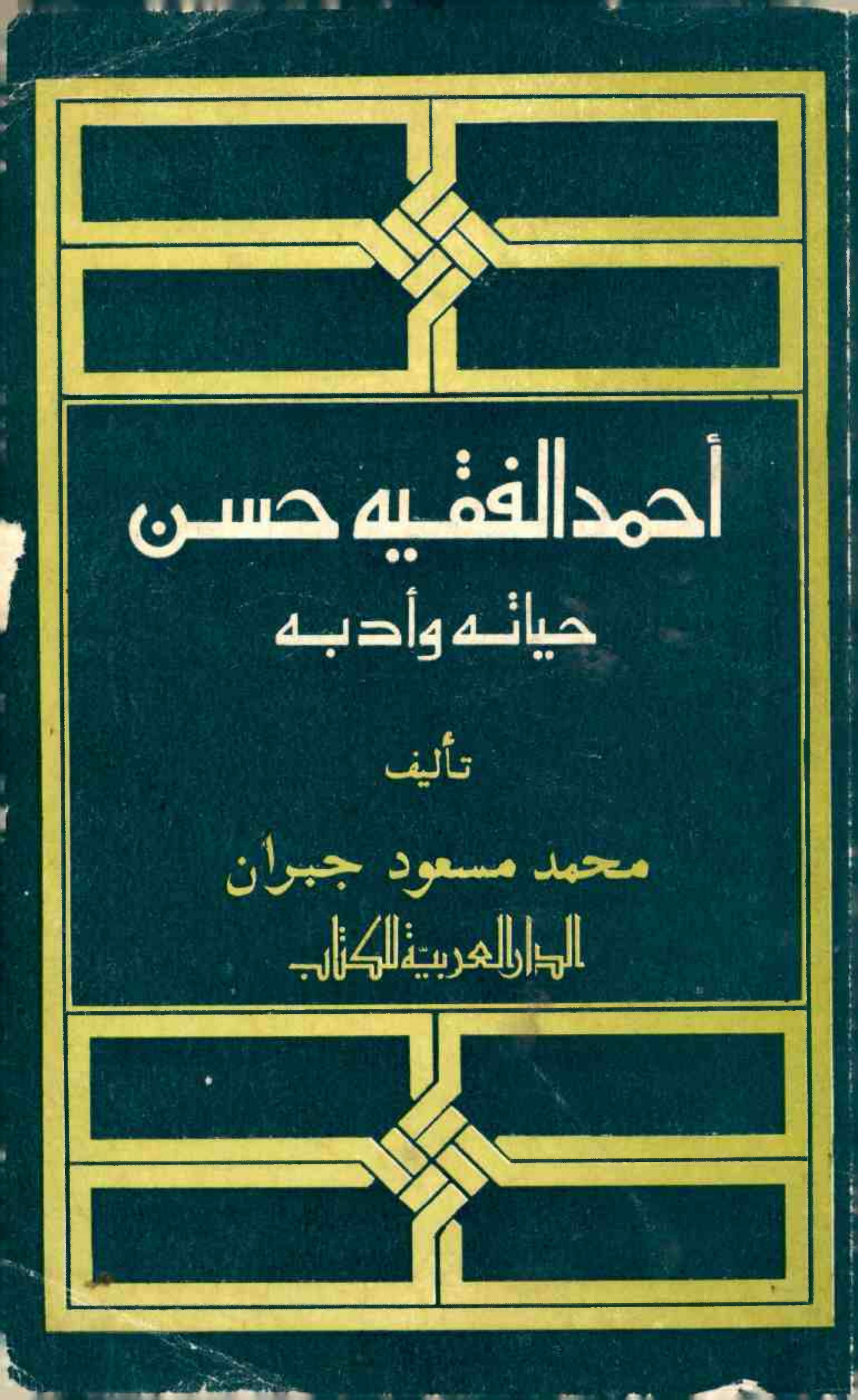

أحمد الفقيه حسن
حياته وأدبه
تأليف
محمد مسعود جبران
الدار العربية للكتاب

أحمد الفقيه حسن

حياته وأدبه

تأليف

محمد مسعود جبران

الدار العربية للكتاب

ليبيا - تونس



أحمد الفقيه حسن

١٨٩٤ - ١٩٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يتناول هذا الكتاب نضال وشاعرية علم من أعلام الحركة الفكرية والأدبية في ليبيا هو الأستاذ الأديب أحمد الفقيه حسن رحمه الله . والبحث في مجموعه يمثل دراسة تجمع بين العرض التاريخي والنقد الأدبي أشرف برفعها إلى قماطر مكتبتنا العربية لتكون حلقة متواضعة من حلقات التعريف بالحياة الأدبية والثقافية في بلادنا

وهي المهمة التي نهض بأعبائها منذ أعوام الجلة من كتابنا ونقادنا البارزين في دراسات هادفة مشكورة .

والأستاذ أحمد الفقيه حسن موضوع بحثنا شاعر مناضل من الذين أسهموا منذ العشرينات بجهود إيجابية فعّالة في مجالات السيّاسة والتعليم والأدب ، ومن العجب الذي لا ينقضي أن تغفل الأيام دوره وكفاحه ضد الاستعمارين الإيطالي والبريطاني كما أغفلت أدوار الكثير من المخلصين الذين استعذبوا البذل في سنوات الجدب التي يندر فيها أهل التضحية ويكثر فيها الباخلون ؛ لقد جفف كتابنا ونقادنا أقلامهم وطووا صحفهم ولم يلتفتوا للأديب ولا لأدبه في الوقت الذي نرى فيه كما يرون ـ أنه من أوجب الواجبات وآكدها أن تحظى أقلامنا المبدعة وعقلياتنا الخلاّقة وشخصياتنا المناضلة انصافا لا تعصباً ـ بالبحث فيها والدراسة حولها والترويج لها حتى تثرى حياتنا الفكرية وتعرف في الخافقين .

ولست أشك في أن الأستاذ أحمد الفقيه حسن يمثل في تاريخنا

الحديث بانتاجه السيّاسي والأدبي وشعوره الوطني والقومي والإسلامي، كما سيوضح هذا البحث، ظاهرة ثرية خصبة لا يمكن اغفالها .

إن ديوان هذا الشاعر - وهو صدى لنضاله وحياته - انطلق من آسار هذه العزلة القاتلة التي عاشها أدبنا وفكرنا زمنا غير قصير تشوّفت لها أثناءه القرائح والفهوم بالمشرق والمغرب وانطلق حفياً بجناحيه مغرّداً بأصواته متنقلًا في الأمصار كما يتنقل الكروان في الآفاق، فلقي حيثما حلّ عرفاناً وتقديراً وصادف قصيده من المقدرين اعجاباً وتوقيراً . من قاهرة المعز التي صفّق له نيلها ومن بغداد الرشيد التي تغنّى بدرره فراشها حتى تجاوب لهذا التصفيق والغناء ترجيع فاس ومكناس .[1]

ولقد تردد رجع الصّدى المنصف في نفس شاعرنا المناضل الذي سرّ بما حوطه من احتفال بشعره وإشادة بكفاحه .

---

(١) إشارة إلى كلمات تقديرية منصفة تلقاها الشاعر من تلك البلدان .

ولكنّه أصاخ السّمع لأرجاء الوادي حيث (لا كرامة لنبي في أهله) عساه يستمع من عشيرته وجيرته إلى كلمة مقدّرة أو يبصر لجهوده دراسة موضوعية ناقدة فعاد من ذلك بما يعود به المشط من رأس الأقرع ، ولعلّه تساءل كما تساءلنا هل درست معالم العلم والأدب عندنا فاستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ أم نضبت عيون الفضل فقام حجاب المعاصرة دون الانصاف ؟ أم صدقت تلك الكلمة التليدة المتواترة أن (زامر الحي لا يطرب) .[1]

ومن الانصاف هنا أن نذكّر بسعي الأُستاذ خليفة التلّيسي في اصدار وطبع الديوان وبتلك الكلمات الوفيّة التي صدرت في استقباله عند نشره من بعض الكتّاب والصحفيين الذين نهضوا لتحية الشعر والشاعر إلاّ أنّها كانت كما شاء لها أصحابها من التحايا

---

(١) عرفت ثورة الفاتح للشاعر مكانته فكرّمته في عيد العلم سنة ١٩٧٢ وأحيت ذكرى الأربعين لوفاته وقد شارك فيها بعض أدبائنا بكلمات حية .

العاطرة التي لا يوزن بها فنان أو يقيّم بها فن من الفنـون . وهي على علاتها أفضل بكثير من بعض الأحكام غير المسؤولة التي يهدف أصحابها بما لا يعرفون دون أن يراعوا أمانة الدرس والبحث لاصـدار الأحـــكام .

ولا أقصد بذلك رفع هذا الشعر إلى مكان لا يستحقه أو أزكيه ليكون في مصاف شعر الفحول ذلك لأن مكانة أستاذي أحمـد الفقيه حسن عندي أرفع من شعره الذي لا يمثّـــل في شخصيته إلاّ نعتا من النعوت استطاع أن يسهم به في مرحلة تاريخية معيّنة ، إنما أقصد أنّ هذه الآثار لا تقـلّ عن منازل آثار مرحلتها وهي جـــديرة بالنظـرة المدققة النقـادة من الذين عـرفـوا بالنقـد .

وأنا لمّا وجدت أن هذا المناضل الأديب (ماله حافٍّ ولا رافٌّ) لإظهار مكانته والإبانة عن دوره حتى يعرف الضالع من الضليـع ، عقدت العزم على أن أقدم هذه الصفحات عرفانا ووفاء وتقديراً وتقييما ولتكون بما توفّر فيها من حقائق تميط اللّثام عن فترة دقيقة من تاريخنا وثيقة معينة في الكشف .

وقد رأيت أن أعرض لبيان شخصية شاعرنا ودوره ـ ضبطاً للبحث ـ من جانبين :

جانب التّرجمة للرّجل وارتباطه بكفاحنا السّياسي والعلمي ودوره في النّهوض بالوعي العام بما قام به من تأسيس للنّادي الأدبي والحزب الوطني والمشاركة في أعمال حزب الكتلة الوطنية الحرّة .

وجانب الإبداع الفنّي كأديب من أدبائنا الذين أثروا أدبنا منذ أوائل هذا القرن وقد عرضت لذلك بالحديث عن تطوّر النّثر في بلادنا ودور شاعرنا بين كتابنا الأوائل ، ثم بسطت القول في دراسة ديوانه وآثاره الشعرية من خلال مقارنته باتجاه أو مذهب فنّيّ يتّبعه .

وقد واجهتني في بحثي هذا صعوبات تواجه كل باحث في التوثيق للكثير من تلك المراحل نظراً لقلّة المصادر وخصوصاً لمرحلة الأربعينات الزّاخرة بالأحداث والنّوازل على أن صلتي بالشاعر وشقيقه المؤرخ أستاذنا علي الفقيه حسن وهي صلة دامت أعواماً وبدراساتي في

المظـان القيمة التي توفـرت لديَّ أتاحت لي معطيات كثـير أعانتني فـيما أحسب على الحديث في الجانبين بموضوعية .

وأمـلي أن يقوم هذا العمل بما رسمته له ويحظى من عين الرضا عند المنصفين بالقبول والله من وراء القصد .

طرابلس في ٢٢ محـــرم ١٣٩٦ هـ / ٢٤ ينـــاير ١٩٧٦ م .

محمـد مسعود جبران

كتب للأستاذ الشاعر أحمد الفقيه حسن أن يواكب ويعايش خلال رحلة عمره خمسة عهود مختلفة متباينة أثّر فيها وتأثّر بها وظهرت بأشكالها حياته وزبدة تجاربه وأعماله، ولذا فإنّ الترجمة له والدّراسة لفنّه لا تتّضح إلاّ بفهمها ومعرفة أحداثها وملامحها ولسنا بعامدين في الدرس هنا إلى التحليل والبسط التاريخي الموسَّع ولكنَّنا سنكتفي بإيماءات ضرورية دالّة تهمّنا في بيان ترجمة الأديب المناضل وانعكاسها في أدبه وكفاحه.

هذه العهود الخمس، أواخر العهد العثماني الذي بلغت فيه ليبيا بعامة حداً واهنا من ضعف الحياة ممّا جعلها أملًا للطّامعين ولقمة سائغة للمغتصبين، وفي هذا العصر قضى مترجمنا ستة عشر عاماً من عمره اقتصر فيها على الدّرس والتحصيل العلمي دون أن يكون له دور في مجرياتها.

العهد الثاني هو طغيان العهد الإيطالي الذي اشتد فيه الضيم والعيث بتكميم الأفواه وفتح مصاريع السجون وتقتيل الأهالي وابتلي فيه الليبيون كما يقول الأمير شكيب أرسلان « من الإستعمار الإيطالي الفاشيستي بالداهية الدهماء والبلية الصماء التي مهما كثرت مصائب الإسلام في هذا العصر فلا شيء منها يشبهها »[1] وقد حدّث فم الدنيا فيه عن جهادهم وصمودهم بما لا مزيد عليه من الفخر والخلود . في هذا العهد انصرم على شاعرنا ما يقارب الثلاثين عاماً بين مرحلة واصل فيها دراسته وتحصيله ومرحلة انخرط فيها في الكفاح الوطني .

ثم أطلّت سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية والتي تكتلت فيها الدول الأوربية مرة أخرى للسيطرة على العالم الإسلامي ـ وقد تمت فيها بالفعل سيطرة بريطانيا على ليبيا سنة ١٩٤٣ ودامت قرابة عقد واحد من الزمان هو الذي بدأ فيه العمل السّياسي في البلاد للمطالبة بالاستقلال وقد أسهم فيه

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ص ٦٦ .

مترَجمنا مساهمة فعَّالة وإيجابية وذاق فيه أذى الملاحقة والسجون .

وقد انتهى ذلك العهد في أوائل الخمسينات بإقرار هيئة الأمم مبدأ الاستقلال والتحرر من الدول الأجنبية ليبدأ العهد الملكي الذي حكم البلاد سبعة عشر عاما أُغفل فيها الرجل كثيراً وتنُوسِي دوره وكفاحه .

وفي سنة ١٩٦٩ قامت ثورة الفاتح من سبتمبر فقوّضت دعائم العهد الملكي وهدَّت صروحه لتبني نظاماً جديداً .

والحق أن شاعرنا لم يبد في هذين العهدين مشاركات عملية حركية يؤثر بها في الحياة العامة كما عهدناه في العهدين الإيطالي والبريطاني إذ صُيِّر مجرد رجلَ إداري كرئيس لمجلس الأوقاف بطرابلس في العهد الملكي وتقدمت به السن وتزاحمت عليه الأمراض في العهد الأخير فتقاعد واعتزل إلى أن طويت صحيفة حياته رحمه الله . هذه إلمامة سريعة أجملنا فيها أشكال العهود التي واكبها الرجل طيلة ثمانية عقود زاخرة بالأخذ والعطاء

تسلمنا الآن إلى شرحها وبيان التفاعل بينها وبين مترجَمنا بشيء من التفصيل بعد التأصيل .

منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي بدأت تتضح الهوَّة الحضارية بين الشرق والغرب وتترجح الكفة بالتقدم المادي والأطماع التوسعية للعالم الأُوربي الصليبي الذي أفاد كثيراً من ظاهرة التحجر والإنحطاط في عالمنا الإسلامي .

إذ في الوقت الذي كانت تشهد فيه أوربا ازدهاراً في العلم والتصنيع وتضع أقدامها على أرضية حضارية متوثِّبة كانت الحياة العامة في العالم الإسلامي مخفقة راكدة بجميع الأشكال في التعليم والإدارة والحكم والحياة الإجتماعية والإقتصادية والفكرية وظهرت العظامية المعوقة التي تقنع بالواقع المزري وتسفه كُلَّ نهضة لتتغنَّى بصوت منكر بأمجاد الأَسلاف ومفاخرهم دون أن تضيف إلى ذلك شيئا .

وقد استرسل عالمنا الإسلامي في نومة عميقة خاملة أوجدت فيه نتيجة لذلك القابلية للاستعمار ضرورة أنه أصبح عالماً

جامداً واهنا لا يتعلق بأسباب الحياة وبعلو الهمـة المعطاءة ممَّا لم تُجد معه صيحات المصلحين ودعواتهم التي دوَّت في أقطاره ولم تنفع بسببه الإصلاحات والبناءات التي نهض بها ثلَّة من الغيورين لأن العلة يومئذ كانت مستحكمة والدولة عجـوز لَحب جنباها والأَطماع الصليبية متربصـة وليس بمكنة أحـد مهما بلغ أن يغيِّر في سرعة واقعا منهاراً بعصا سحرية فسقط العالم الإسلامي نتيجة افلاسه كفريسة واهنة بين مخالب وحوش كاسرة .

ولقـــد كان شأن ليبيا وعاصمتها طرابلس الغرب التي ولد فيها مترجمنا لا تختلف في شيء عن بقية البلدان الإسلامية فيما تعانيه من صنوف التخلف في أشكال الحيـاة الإجتماعيـــة والإقتصادية والفكرية إذ بالرغم من بعض الحركات الإصلاحيـة التي شهدتها هذه المدينـة على أيـدي بعض الولاَة المخلصين والـتي حاولوا بها أن يرأبوا الصدع ويلموا الشمل كصورة ترقيعيـة للإصلاح الحميدي في تركيا .

وبالرغم من إفاقة هذه المدينة على صوت قوي : هـــو صدى

للحركات الإصلاحية في الشرق ، فيما رفع به إبراهيم سراج الدين عقيرته بالتنبيه والدعوة للانتفاض والخروج من تـركات ثقيـلة والصمود في وجه مخاطر إيطاليا المتربصة .

بالرغم من ذلك كله بقيت هذه المدينة تـئن من أعبـاء السنين العقيمة والتخلف الذي منيت به فيها حتى لقد وقع المحذور فعلًا لأن التمائم لا تنفـع إذا أنشبت المنية أظفارها فسقطت طرابلس كبقية الأمصار الإسلامية في ٥ أكتوبر سنة ١٩١١ لتنهشها أنياب إيطاليا الحاقدة ولتتبعها بعد مكابدة ومعاناة مدن وجهات أخرى من البلاد الليبية .

في تلك الظروف المتوثبة المتوترة والأحداث الحامية الدامية من سنوات الربع الأخير من القرن التاسع عشر ولد شاعرنا أحمد الفقيه حسن في مدينة طرابلس الغـرب وأمضى عقدين من عمره على هدير وحركة النقلة من عهد الخلافة العثمانية المتداعي إلى عهد الاستعمار الإيطالي ـ فقد استقبل شاعرنا إشراقـة الحياة يوم الثلثاء ١٤ من شـوال سنة ١٣١٢ ـ سنة ١٨٩٤ حيث ولد في بيت

عريق حفظ رسوم العلم والفضل وشبَّ في أحضانه ينتعشهما إذ طابت أرومته بالنسب المحمدي الطاهر وعظمت جرثومته بما سجله سلفه من المفاخر . فجده لأبيه هو سميُّه السيد أحمد الفقيه حسن الأديب الشاعر الذي شغل منصب رئيس القلم العربي بولاية طرابلس في العهد العثماني وجده لأُمه هو السيد علي القرقني الذي كان شيخا للبلاد ١٨٧٠ـ ١٨٧٤ وهو « من أصدقاء عبيد الدولة العلية ومن الصارفين كل الغيرة والمقدرة في خدماتها السنية وله إقدام واجتهاد على رؤية وتمشية مصالح عباد الله تعالى »[١] أما والده فهو السيد محمد الفقيه حسن مستشار محكمة الاستئناف والمثقف المناضل ذو المواقف المشهورة والذي اختاره الطرابلسيون لأجلها عضواً في الحكومة الوطنية[٢] .

هذا الشرف من مجادة الأصل ونباهة الذكر أعطى لمترجَمنا معالم يترسمها ومناهج يتأثرها ويبني عليها فيما بعد أعمالاً مشكورة

---

(١) بلدية طرابلس في مائة عام ص ٩٦ وما بعدها .

(٢) أعلام ليبيا للطاهر الزاوي ص ٣٢٢ .

تنضاف لمساعي آبائه ـ فلقد كان هذا البيت الذي درج في رحـابه بيتاً معروفاً له صلاتـه بالحياة العامـــة في طرابلس الغرب منذ القرن العاشر الهجـري كما كان في بعض الفـترات التاريخية محطاً عامرا يرتاده الأعيان وأقطاب الجهاد والعلم والأدب ، ولا نشك في أن هاته المزية التي تذكر للبيت والتي فتح مترجَمنا عينيه عليها قد أسهمت هي الأُخـرى في تكوين ذهنه إن لم نقـــل أسهمت الإسهـام كـله .

لقد كان شاعرنا شابا يعي ما يدور حوله منذ أوائل هذا القرن حينما كان العلاَّمة عبد الرحمان البوصيري والشيـخ محمـد المصراتي والأُستاذ إسمـاعيل كمالي ومحمـد فرحـات يؤُمون البيت ليصادفوا منتدى فكرياً وأدبياً تطرح فيه المسائل العلمية والمباحث الثقافية والأدبية ، وكان مترجمنـا شاباً طُلَعة حينما كان يحـل المجاهـدون سليمان الباروني ومحمـد فكيني وعلي شلابي في هـذا البيت ليجدوا من حسن آراء والده مـا يعـــين على حسن التصـور في النضـال والوقوف الصامد أمام الغزو الإيطالي .

لقد كانت البيئة التي نما فيها شاعرنا إذاً بيئة تعين على تكوين شخصية علمية ونضالية لأنها منتدى لفحول العلم والكفاح وأقطاب المعرفة والنضال فلا غرابة بعد ذلك أن تتظافر في شاعرنا وليد هذا البيت المعاني العلمية والمعاني الوطنية وتحفل حياته فيما بعد بخصائص من الفكر وأخرى من العمل والحركية لأن أوليات الدروس التي وعاها في حياته كانت موزعة بينهما .

لقد أدرك شاعرنا من العهد التركي أواخره الذي يتّسم بعامة أنه كالغريق يتخبط في محيطات العجز والتخلف والإفلاس وإن تشبث للحياة أحياناً بأطواق النجاة التي لم تعد تُجديه ، وقد واكب شاعرنا تسعاً من الولَاة العثمانيين والأتراك الذين حكموا طرابلس الغرب ، لعل أبرزهم في التأثير على الحياة العامة التي عاشتها هذه المدينة أحمد راسم وسليمان نامق وحافظ محمد ورجب باشا وإبراهيم أدهم (الذي وجد البلاد في ارتباك عظيم وفوضى ما بعدها مزيد ووجد النفوذ الإيطالي متغلغلاً في البلاد بسبب سياسة الضعف والإهمال التي إتبعها من تقدمه من الولَاة وخصوصاً حسن باشا الذي كان طوع إشارة الإيطاليين ولمس ما

في الإدارة من ارتباك وما خالط نفوس السكان من هَلَع من هذا المصير الذي أصبح منهم قاب قوسين ، فشرع في إصلاح ما يمكن إصلاحه وقبض على الأمور بشدة) ،[1] وفي الحق أن الحياة انتعشت إلى حدٍّ ما في ظل هؤلاء الولاَة فازدهرت الزراعة والتجارة وألوان من الصناعة كما انتشرت نسبياً مدارس التعليم العربي والأجنبي[2] مع أثارة من علوم كان يضيء شعلتها في المساجد والزوايا أشياخ علماء بدروسهم وتآليفهم على أن هذا الانتعاش الذي كانت تلوح بروقه لم يكن في الواقع إلا تلفيقا لوضع منهار دلَّت فيه الإرهاصات المتظافرة على فنائه وإشرافه على الهلاك بحيث زادت حالة الغريق في الإشراف على الموت والضياع بأسباب متعددة منذ ولاية أحمد فوزي الذي زاد نشاط السياسة الإيطالية في زمنه حتي إذا تولى الولاية حسن حسني (١٩٠٩ ـ ١٩١٠) » أتى على كل ما بقي في البلاد من روح

---

(١) جهاد الابطال للشيخ الطاهر الزاوي ص ٤٤ .

(٢) راجع ليبيا قبيل الإحتلال الإيطالي للدكتور أحمد الدجاني .

مقاومة السياسة الإيطالية وأفسح المجال للتدخل الإيطالي حتى اشمأز الناس من أعماله وأدركوا سوء عاقبتها السيئة »[1] وقد أسدلت الستارة على خاتمة مأساة ليبيا في السقوط بين مخالب إيطاليا وأنيابها الحادة بالتآمر الخسيس الذي قام به حقي باشا باستدعاء إبراهيم أدهم المعروف بمجابهته للسياسة الإيطالية ـ كما أسلفنا ـ إلى تركيا .

ولا يهمنا كثيراً هنا أن نفصّل تلك الظروف والملابسات التي أحاطت بنهاية العهد العثماني وبداية العهد الإيطالي لأننا كما ذكرنا نهتم من تلك الظروف بانعكاساتها على حياة شاعرنا وهذا العهد لم يترك طابعه عليه كما يحدثنا تاريخه إلا في معارفه وتحصيله العلمي .

تحدثنا سيرة ومسيرة أستاذنا أحمد الفقيه حسن عن ألوان من تلك الحياة الفكرية التي سادت في طرابلس إبّان العهد العثماني وأتصل بها في أخذه وتكوينه .

---

(١) جهاد الابطال للشيخ الطاهر الزاوي ص ٣٩ .

فقد أُلحق لما بلغ سن التحصيل بالمدارس التركية النظامية ـ بعد مرحلة الكتّاب التي حفظ فيها قدرا من القرآن الكريم على عادة أهل البلد ـ ليتلقى اللغة التركية واللغة العربية ومبادىء العلوم في الفقه الحنفي والحساب والتاريخ والجغرافيا فتكوّن منذ نعومة أظفاره بتلك المناهج إلى أن تحصل على الشهادة الإبتدائية التي خولته الإلتحاق بعدئذ بالمدرسة الثانوية التي حرص على حضور دروسها مضيفاً إلى معارفه الأُولى معارف جديدة كالهندسة والجبر ومبادىء القانون المدني واللغة الفرنسية، ويبدو أن مناهج الدراسة في هذه المدارس التركية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بطرابلس الغرب كانت لا تعير لتدريس اللغة العربية عناية كافية فخشي والده من أن يخرج ولده منها ضئيل الحظ والنصيب في لغة القرآن وعلومها ، لذلك أخذه إلى المعاهد العربية الإسلامية وإلى دروس خصوصية تلقاها في مدرسة عثمان باشا الساقزلي ومدرسة مصطفى الكاتب وجامعي ميزران وشائب العين فنال بذلك قدرا وافراً من اللغة والأدب والنحو والبلاغة والعلوم الشرعية على كبار العلماء

كالشيخ مصطفى الخازمي والشيخ أحمد بن محمود والشيخ مختار الشكشوكي والشيخ محمد الضاوي . وقد استطاع بمثابرته وجِدّه أن يتزوَّد زاداً ليس بالقليل من تلك العلوم .

لكن طموح مترجَمنا الشاب ـ مع ما تحصل عليه من ثقافة وعلم ـ كان متوجهاً كطموح أنداده وأترابه ممن أتيحت لهم فرصة التحصيل إلى الرغبة في إتمام دراسته الجامعية ليعبَّ من معينها وتتفتح له بها آفاق وآمال ، وكان يتمنى أن يتمها في جامعة اسطمبول التي كانت تسمى آيامئذ بمكتب الفنون وهي معروفة بتعمق مناهجها واتساعها وشهرتها في تركيا وخارجها إلا أن نشوب الحرب الطرابلسية سنة ١٩١١ وهو في سن السابعة عشرة تقريباً حالت بينه وبين تحقيق هذه الرغبة فبقيت من الآمال الحبيسة في صدره .

ومن دهاء إيطاليا بعد أن إتضح لها أن الاستيلاء على ليبيا ليس مجرد جولة ـ كما كانت تتوهم وتتبجح ـ أنها صارت تستميل الأعيان والأُسر ذات الأثر بإيفاد أبنائها إلى جامعات إيطاليا

ومعاهد التعليم فيها وكان ممّا فكّرت فيه أن تعرض الفكرة على السيد محمد الفقيه حسن لتوفد أحد إبنيه أو كليهما ولكنه آثر أن يظلاّ بغير شهادة منها لأنها تشين الأحرار وتحملهم على الخضوع والخنوع .

وقد حاول شاعرنا أن يستعيض ـ بتوجيه من والده ـ عن التعليم الجامعي بالتحاقه سنة ١٩١٣ بكلية أحمد باشا التي تدرس فيها « جميع العلوم الشرعية وما يتعلق بها من علوم العربية وأصول الفقه والمنطق »[1] ليتمرّس بمناهجها ويلتصق بأشياخها أمثال العلاّمة البوصيري الذي له باع في جميع العلوم والشيخ أحمد بن محمود والشيخ عبد السلام الزنتاني والشيخ إبراهيم باكير والشيخ مصطفى الخازمي والشيخ مختار الشكشوكي ويكمل في فترات الفراغ دراسته للفرنسية والإيطالية بمدرسة « الفرير » بالمدينة القديمة

---

(١) نموذج من الاعمال الخيرية للشيخ محمد منير الدمشقي ص ٤٥٩ .

« وكانت ظاهرة من ظواهر المجتمع في طرابلس أن يشجع الأعيان والسراة الأدب في شكل « سهريات » أو ندوات »[1] وقد كان من بين هذه المنتديات التي نشط لحضور جلساتها في تلـــك المرحـلة نـدوة كانت تنعقـد في مكتب والـــده بالفنيـدقـة بالإضافة للندوات البيتية التي كان يحضرها ثُـلَّة من العلمـاء والأعيان .

والذي لفت أنظار أشياخه ووالده إليـــه في تلك الفترة انصرافه إلى القراءة الأدبية وميله للكتب التراثية في الشعر وهي ميزة تفرد بها بين إخوانه الدارسين الذين كانت تروقهم المتون العلمية والشروح الفقهية .

كان شديد الوُلوع بالشعر ودواوينه كثير الإحتفال بالمصادر والمراجع الأدبية ميَّالًا للأسمار التي تعـــج بالتطارح الشعري والحديث حول أعلام الأدباء ، وقد كان والده مربياً ممتـازا حينما

---

(١) أحمد الشارف دراسة وديوان للاستاذ علي المصراتي ص ١٤ .

عرف امكانيات ولده النفسية والعقلية إذ تعهَّد فيه هــذا الميل وأخذ يتجاذب معـه الأشعار الرائقـة ويقرئه مقامات الحريري بشرح الشريشي وديـوان الحماسـة بشرح المرزوقي وشروح سقْط الزند وينتقي معـه للدرس والمباحثة أبواباً مختــارة من الأغاني والعقد الفريد وظلَّ معه على هذا التوجيه إلى أن اشتدت على البلاد قبضة إيطاليا وكثر إيذاؤها للمناضلين ،هناك فكر والده في الرحيل والهجرة واختار له ولأُسرته مصر مهجرا .

والذي يهمنا إثباته هنا ونحن نؤرخ للرجل وفكره أن الحياة المصرية التي أطلَّ عليها شاعرنا في عقده الثاني سنة ١٩١٤ بمكوث أسرته في الإسكندرية ،كانت هي الأُخرى أصلاً هاماً من أصول بنائه الثقافي وعمـاداً لا ينكر في تكوينـه الفكري والأدبي والحركي أيضاً .

فقد كانت تلك الحياة كما لا يخفى مليئة بأسباب الحيـاة حافلة بضروب النضال ضـد الإنجليز مزدهرة بالفكر العلمي والأدبي وتفاعل الأحزاب والطوائف بمبادئها السياسيةوالفكرية المختلفـة والتي كانت تروج في المؤتمرات العامـة والصحف

والمنشورات الدورية ، كانت حياة تصطخب بالحركـة والتلاطم وتمتلىء بالصراع بين القديم والجديد .

وشابٌّ في مثل سن مترَجمنا يحمل بين جنبيه شرارة التفـاعل والحيويـة لا يقدر مهما حـاول على الإعتزال والفـكاك في محيط تلك التيارات الهادرة المتصارعة لذا فنحن لا نشك البتة في أن هذه الهجرة قد أَضافت له زاداً من الثقافة في إتصاله على مستوى الأَدب بالمدرسة التقليدية الحديثة التي كانت مرفوعـة الرايات في تلك المرحـلة ونصيبا غير قليل من الفعالية بما فتح مداركه وقوّى حصيلته من الحماس الوطني حتى إذا عاد إلى أرض الوطن أَظهر ذلك بتأسيسه للنادي الأَدبي سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٤٣ ، والحزب الوطني سنة ١٩٤٦ .

في هـذه المرحلة المهجـرية أستزاد مترَجمنـا تحصيلاً وعزماً أذ دخل إلى مدرسة اللغات الحية يواصل دراستـه وتحصيله ، كما أُخذ دروساً خصوصية أخرى في علوم البلاغة والنحو والعروض على الشيخين إبراهيم طبانه ومحمد زائد ، وفي الأَثناء حفظ الكثير من الشعر الجاهلي والإسلامي والعباسي وبعضاً من شعر المدرسة

التقليدية الحديثة النابض بالوطنية والقومية مع دراسات مستمرة في الصحف السياسية والدينية والأدبية . ومن طريف المصادفات أن رياض الإسكندرية الماتعة ولازوردية بحرها الشائقة ونعومة شطآنها الصافية كما هزَّت قريحة شاعرنا أحمد رفيق المهدوي فقال بين رياضها باكورة شعره فتقت هي الأُخرى قريحة شاعرنا أحمد الفقيه حسن فقال سقْط زِنده فيها حنيناً للوطن كما نظم كتاب عالمنا الليبي ابن الاجدابي « كفاية المتحفظ » .

ولمَّا هدأت الأحوال نسبياً واستقرت العجاجة العاتية إلى حدٍّ ما في طرابلس عاد شاعرنا مع أسرته سنة ١٩١٩ إلى وطنه وهو التاريخ الذي تمَّ فيه اختيار والده عضواً في الحكومة الوطنية نائباً عن المدينة (١) . فعاد هذا الشاب وقد أذكت السنوات الخمس التي عاشها في مصر فؤاده وأشعرته بجرح وطنه الدامي الذي أحدثته مطامع الإستعمار الكاسرة التي حطمت ودمرت ما شاء لها التحطيم والدمار لتطمس الذاتية الإسلامية وتحارب بلغتها اللغة العربية .

(١) جهاد الابطال للشيخ الزاوي ص ٣٧٧ .

كان شاعرنا شاباً في العشرينات من عمره يتّقد رجولة ويفيض حميَّة فسخَّر جهده ولسانه ووقته وبيانه للبلاد التي عاش بها ولها .

ونتيجة لذلك الشعور والحماس أسس مع إخوانه الشباب الحمس النادي الأدبي سنة ١٩٢٠ كرد فعل لما ترتكبه إيطاليا من جرائم وقد اختاره زملاؤه ليضطلع بعبء رئاسة النادي ويحقق الأهداف المرجوة منه .

ونحن نستطيع أن نتبين الإطار الذي تحرك فيه شاعرنا وزملاؤه الغيورون في تلك المرحلة بوقفة على قانونه الذي سعى الجميع لتحقيق أغراضه .

فقد جاء في الفصل الثاني منه (غايته والهدف الذي يرمي إليه) المادة الثالثة :

١ ـ إنشاء المدارس العلمية .

٢ ـ تعضيد أرباب الأقلام لنشر مؤلفاتهم وآثارهم وتعريب الكتب المفيدة وطبعها وبيعها على نفقة النادي .

٣ – إلقـاء المحاضرات العلميـة والإجـتماعية .

٤ – إعطـاء الدروس لمن له رغبة في تحصيل مبـادىء العـلوم الإبتدائية .

٥ – إنشاء مكتبـة تحتوي على الكتب النافعـة والمجلات والجرائد لمطالعة المشتركين عموماً .

المادة الرابعة : إعانة المـدارس الوطنية وارشادها إلى مناهـج التعليم القويم وتعضيدها مادياً ومعنوياً .

المادة الخامسة : السعي وراء إصلاح الحياة الإجتماعية والحث على التمسك بمـا هـو مستحسن من العوائـد والآداب المطابقة للشرع الشريف .

المادة السادسة : الدفاع عن اللغـة العربية والعوائـد الإسلامية بالوسائل المشروعة .

المادة السابعة : يتمسك النـادي بالمشـاريـع المتقدم ذكرها بقـدر الاستطاعة ونسبة ماليته .[1]

---

(١) راجع قانون النادي الادبي سنة ١٩٢٠ ص ٤ ، ٥ .

إن تلك الأَغراض والمرامي الطموحة تشير بوضوح إلى ظهور تيار وطني يعمل بذكاء ضد المستعمر الإيطالي الذي صار يتجرع الصاب لا من بنادق وهجمات المجاهدين الجريئة فحسب بل من أرباب الفكر والمثقفين أيضاً ـ ولسنا نزعم أن النـادي في تلـك الفترة وصـل لكل أغراضه التي حددهـا لأَن العواثير في سبيله كثيرة كما لا يخفى ولكن يمكن أن نؤكد أن ظاهرة حيَّـة خرجت في أفق الصراع منـذ سنة ١٩٢٠ تتلمس الطريق لإثبـات الذات وتُلهب الشعـور الوطني والقومي ضـد الأَعداء الغزاة .

هذا وقد أُلحقت بالنادي الأَدبي مدرسة ليلية تطوع للتدريس فيها جمع من طلائـع المربين في بلادنـــــا نذكر منهم الأُستاذ علي التركي والأُستاذ علي بحري والأُستـاذ محمود شوكت المـبروك والأُستاذ مصطفى القلالي والشيـخ محمد المصراتي وقد بذل شاعرنا جهده في تلك الظروف العصيبة ـ التي صُودر فيها الفكر ورفعت فيها إيطاليا سياسة التجهيل ـ بتبديد الظـــــلام وإشاعة النور زيادة على مهارته الإدارية والتنظيمية التي كانت من وراء أعمال النادي كلها .

وقد ذاع في هذه المرحلة قصيده الوطني والديني بين أعضاء النادي والناشئة من الأطفال والكشافة يتغنون بحماسته ويتأثرون بمعانيه .

ومن المعروف أن هذه المنارة الثقافية (النادي الأدبي والمدرسة الليلية التابعة له) بقيت تبث تحت إشراف الأستاذ أحمد الفقيه حسن رسالة عظمى إلى أن أغلقتهما السلطة الإيطالية الفاشستية (وعقب تلك الإجراءات تبرع المترجَم له بإعطاء دروس في النحو والأدب ممّا كان له أحسن الأثر في تلك الفترات) [١] إلا أن القبضة الاستعمارية والرعونة الفاشستية كانت تضرب في تلك الفترات كل عمل ينهض بهذه الأمة لذا لاحقت نشاط الشباب الذي تركز يومئذ في مكتب العرفان والذي حظي من جهود مترجَمنا بنصيب كبير فاطفأت جذوة ناره .

---

(١) ترجمة الشاعر بقلم الاستاذ علي الفقيه حسن .

على أن إيطاليا لم تكتف بما صنعت بل سوَّل لها حقدها
الدفين أن تفرق كل جمع وطني تهدمه وتبث فيه بذور الشقاق
ولا سيما إذا كان هذا التجمع يحمل السلاح وينادي بالجهاد
ويناصب إيطاليا العداء ، وقد فاح عطر منشم في الجبهة الجبلية
بين جماعة إسلامية مجاهدة تظلِّلها عقيدة واحدة أوحى لها العدو
المستعمر بالانقسام والعرقية وأصاخت لصوته في ساعات الغفلة
حتى أُريقت دماء وتناثرت أشلاء . هنالك يفتح بيت آل الفقيه
حسن أبوابه وصدره في شارع ميزران ليحتضن بقلبه الكبير
زعماء مخلصين من النخبة « المسيرين للجهاد في المناطق الغربية »
يذكرهم ويوصيهم بالحق والصبر ويحذرهم من مكر الماكرين
الذين يتربصون بهم الدوائر .

حلَّ به السيد سليمان الباروني كما حلَّ به السيد محمد فكيني
وكل له فضله في الجهاد . يسترشد فيرشد ويبدي ما لديه ليتبين
وجه الحق « وأمرهم شورى بينهم » محاورات ومداورات لا يهمنا
الخوض فيها وتتبع جذورها هنا إنما يهمنا أن نوضح أن والد
شاعرنا السيد محمد الفقيه حسن بدأها ليرأب الصدع وكلف ابنه

« شاعرنا » بمتابعة أطرافها والإتصال برجالاتها ، فباشر مترجمنا المهام حتى أنجلت الغمة وانقشعت سحابة الكرب .

والأُستاذ أحمد الفقيه حسن لا يكتفي في العشرينات بما ينهض به من أعباء وطنية في داخل الوطن فقط وإنما يتقدم خطوات إيجابية جديدة فيعقد صلات مباشرة وغير مباشرة عن طريق اللقاءات والمكاتبة والمراسلة مع إخوانه المهاجرين في بلاد الشام ومصر يذكرهم بالقضية ليعرِّفوا العالم عن طريق الصحافة والإعلام بشناعة جرائم إيطاليا وما تفعله في الليبيين من تشريد وتجريد وقتل وإجاعة وسفك للدماء وتمثيل بالشهداء منذ أن استولى الفاشست على الحكم سنة ١٩٢٢ ، كما يكاتب أستاذنا في هذا الصدد مشاهير الحكم والأَدب أمثال حقي العظم حاكم عام دمشق ومحمد ناجي الطرابلسي المنشىء الأَول والشاعر السوري حليم دموس والمؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي ، ولا ننسى في هذا المقام أن نشير إلى إتصال الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة به سنة ١٩٤٦ حيث تباحث معه في القضية الليبية والتونسية .

« ولما كُمِّمت الأَفواه سنة ١٩٣١ واشتدت الرقابة وأُصلت السيف فوق أعناق الأَحرار ومشت الخشية في النفوس ودبَّ الذعر في القلوب ولم يعد أحد يجرؤ على القول تجنَّس الشاعر بالجنسية التركية ليسلم وأخذ ينظم ولكن في كتمان » .[1]

ولا يعني ذلك بالطبع أن شاعرنا تخاذل عن مواقفه أو أنه ألقى بسلاحه أو نسي دوره تجاه جهاد بلاده ، كلاَّ فللرجل دهاؤه المحمود وعزيمته النادرة وهمة صابرة لا تخلُد إلى شيء من المهادنة إلا لتستأنف جهاداً ونضالاً آخر يشرفها ويزكيها .

لقد صار يتردد إبَّان تلك الفترة الخطيرة على حلقات وندوات كانت تعقد في مكتبة الأَوقاف بزاوية الكاتب يحضرها ثُلَّة من أصدقائه منهم الشيخ محمود زكيو والشيخ محمود المسلاتي والشيخ محمد المصراتي وشقيقه أُستاذنا علي الفقيه حسن والأُستاذ أحمد قنابة وأحمد الإزمرلي وهي ندوات ليست فيما نعتقد خالصة لمدارسة الأَدب والعلم مجردين كما توهم الفاشست بل فيها وميض نور يتصل بالعمل للقضية الوطنية والجهاد الليبي .

---

(١) الإتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث للدكتور محمد عفيفي ص ٣٩٨ .



الشاعر في مرحلة نشاطه وعطائه

حتى إذا أطلت سنة ١٩٣٦ أمكننا أن نرى في حياة شاعرنا تحوُّلاً جديداً فعَّالاً وذلك حينما قبل العرض الذي عرضه عليه الأُستاذ المؤرخ إسماعيل كمالي مدير الأَوقاف بتولي أمانة وإدارة مكتبة الأَوقاف العامرة بطرابلس والتي انتظم فيها منذ ذلك التاريخ وأعطاها كل طاقاته وبذل الوسع للنهوض بها إذ نسق رفوفها وجلَّد كتبها المخطوطة والمطبوعة ونظم فهارسها بحسب كُلِّ فن وعلم كما أضاف إلى فكره ثروة واسعة من تمرُّسه بمصادرها ومراجعها النافعة واستمر على ذلك إلى سنة ١٩٤٩ وهو التاريخ الذي رقي فيه رئيسا لمجلس الأوقاف ـ وشاعرنا في عمله هذا ما بين ١٩٣٦ ـ ١٩٤٩ لم يعتزل الحياة والحركة الوطنية التي كانت تمر بأدق وأخطر أدوارها ولم يوح لنفسه كالشاعر محمد حافظ إبراهيم حينما انخرط موظفاً في دار الكتب المصرية وظن أن على الوظيفة رزقه فجفَّ قريضه وخفت صوت وطنيته بل بقي شاعرنا مواطناً كما عهده الناس تهزّه الأَحداث والقضايا ليتفاعل معها بما يقدم لمواطنيه من عطاء بتوعيتهم وتبصيرهم وتعبئة قواهم للمطالبة بالاستقلال والتكتُّل في سبيله حتي لقد كانت هذه

الفترة بالفعل أكثر فاعلية من أية فترة سابقة إذ نجده في منتصف عام سنة ١٩٤٣ يؤسس مع أعضاده النادي الأدبي من جديد ليقوم برسالته في النهوض بالحياة الفكرية والإجتماعية .

يقول الدكتور صلاح العقاد « كانت السلطات البريطانية كما أشرنا أكثر تشدداً في طرابلس حتى أن أهالي هذه المقاطعة صاروا يطالبون بحرية النشاط السياسي أسوة بإخوانهم في برقة وتعلَّلت الإدارة البريطانية بأنه يجب انتظار معاهدة الصلح قبل السماح بإقامة تنظيمات سياسية لذلك أضطر الوطنيون إلى العمل من خلف نواد ثقافية فأسس أحمد الفقيه حسن أول نادٍ من هذا النوع في سنة ١٩٤٣ » [١] ولقد استجابت الأُمة لدعوة النادي ونداء رئيسه و « مدت إليه يد المساعدة المادية من بعض أرباب الخير المحسنين وبتلك الجهود مضى النادي قُدُماً في خدمة رسالته العلمية والأدبية والخيرية » [٢] . والذي يطالع الجرائد الصادرة

---

(١) ليبيا المعاصرة ص ٥٧ .

(٢) ترجمة الشاعر بقلم شقيقه .

في طرابلس إبَّان تلك المرحلة يدرك إيجابيـة شاعرنا ودور هـذا النادي في حياتنا الفكرية ، فبالإضافة إلى المدرسة الليلية التي كانت ملحقة به وتشيع منها المعرفة بين النشء الجديد شهد النادي نشاطاً ملحوظاً يتمثل في المحاضرات والندوات المتنوعة والأماسي الشعرية والترحيب بمقْدم الشخصيات الفاضلة التي تفد إلى البلاد ـ على أن شاعرنا المناضل مع هذه الأعمال الظاهرة كان حركياً ينظم في الخفاء ضد المستعمر خلايا وطنية حية هي نواة للحزب الوطني فقد « تكاثر الوطنيون بعودة المهاجرين في أعقــاب الحرب ومنهم عدد كبير ممن أتيحت له فرص التعليم ـ واعتماداً على هـذا الجيل كوَّن أحمد الفقيه حسن الحزب الوطني سنة ١٩٤٤ وفي ذلك الحين أضطر إلى أن يكون الحزب سريًّا »[1] .

وقد كان من أبرز أنصاره ورفاقـه في هذا التنظيم الأساتـذة محمـــد توفيق المـبروك ومحمـــود العـربي ومصطفى حسن ومحمود المسلاتي والصادق بن زراع وغيرهم ممـن وصفتهم الإدارة

---

(١) ليبيا المعاصرة للعقاد ص ٥٧ .

البريطانية بأصحاب الطموح لأنهم كما لاحظت يزدادون تجاهها صلاوة قوبة[1]. لقد عمل شاعرنا في هؤلاء ويبدو أنه هو صاحب الفكرة في هذا العمل الذي أريد به التصدّي لألاعيب السياسة البريطانية والأجناس الغريبة التي ما انفكت تمتص خيرات البلاد وتكيد لها . وقد فوض الجمع الشاعر المناضل في إبداء هذا العمل بصورة رسمية بعد أن كان « في أول أمره منظمة سرية تعمل في شكل خلايا حتى بلغ عدد أعضائه ١٨٠٠ شخصاً كان من بينهم كثير من الزعماء المشتغلين بالسياسة »[2] فكتب شاعرنا القانون الأساسي مع المذكرة الإيضاحية إلا أن البراجدير بلاكلى حاكم الإدارة البريطانية في طرابلس أبى بصلفه أن يقبل تأسيس هذا الحزب ووقف من هذه الحركة وقفة الازورار والتبرم وعدَّ هذه الجماعة على عادة المستعمرين عصابة خرجت وشقت . وقد أخبرني الاستاذ أحمد الفقيه حسن بأن هذا الحاكم صرح له

(١) أنظر بلدية طرابلس في مائة عام ص٣٠٩ ، ص ٣٨٠ .

(٢) المصدر نفسه .

في برود وقحة أنـه ما دامت له هـذه الصفـة الرسمية كحاكم عسكري للبلاد فسوف لن يسمح بقيام هـذا الحزب والنشاط المعادي ، وإذا كان لهذا الطاغية عنـاده في الباطل كما تبين فإن لشاعرنا المناضل عناده في الحـــق لأنه في موقفه إنما يعبر عن طموحات أمة مناضلة وكيف يلين إباؤه أمام مغتصب حاقد لا يرعى للوطن العزيز إلاًّ ولا ذمة ويبدو أن لجاجة بلاكلى وتصريحاتـه أدخلت الرعب في بعض النفوس فألقت بسلاحها رغبة ورهبة.ومع ذلك اجتمع شاعرنا ببعض أعضاده الصامدين الذين لم ينسحبوا وقال لهم بنبرة حازمة واثقـة وكأنه يدعـوهم للصمود والمرابطة « أيها الأحرار إن مصطفى كامل حينما أراد مع رفاقه تكوين الحزب الوطني في مصر من أجل قضية بلاده لم يحدث أحد منهم نفسه باستشارة الإنجليز ، إن القضية قضيتنا ولا تعني أحداً سوانا » .

وقد أعلن عن ظهور هذا الحزب رسمياً في شهر سبتمبر سنة ١٩٤٥ وتولَّى شاعرنا رئاسته . ومن الأحداث الهامة التي تتصل بترجمنا أنه وقف ـ سنة ١٩٤٤ في اجتماع عام أراد به رئيس الإدارة

البريطانية أن يتحسَّس رغائب واتجاهات الشعب ـ يجاهر بالحق وينادي بالاستقلال والتحرر وقد أسرها البراجدير بلاكلي في نفسه وأكد بها ما كان يصله تباعاً من تقارير عن نشاط الأُستاذ أحمد الفقيه حسن .

ومن المعلوم تاريخياً أن اليهود في طرابلس الغرب بما يمثلونه من آمال نحو الصهيونية واستغلال البلاد في تلك الفترات ورغبة أكيدة في استمرار الحكم البريطاني على ليبيا أثاروا الشعور الوطني والديني عند الليبيين فثاروا عليهم في شهر نوفمبر سنة ١٩٤٥ وقد ضاعت نتيجة هذه الثورة « كثير من الأرواح ودمرت ممتلكات ولم تخمد تلك الاضطرابات إلا بعد استخدام القوات العسكرية في قمعها » . (١)

وقد أعطت هذه الأحداث مبرراً كافيا للبراجدير بلاكلي في القبض على الكثير من رجال طرابلس وشبابها وكان في طليعتهم شاعرنا الذي تمَّ اعتقاله في ٦ نوفمبر

---

(١) أنظر بلدية طرابلس في مائة عام ص ٣٧٩ ، ص ٣٨٠ .

سنة ١٩٤٥ وزُجَّ به في السجن مدة خمسة وسبعين يوماً في السراي بتهمة إثارة الشعب والتآمر على الثورة ضد اليهود . ورغم ذلك الإرهاب الشديد والإيقاف الطويل الذي نفَّس به بلاكلي عن كيده ومكره لمساومة الشاعر وكبت حركيته ظل مستشعراً لدوره ولم تهدأ ثائرته البتَّة .

ولكن سرعان ما ضرب هذا الحزب الوطني الذي نادى باستقلال ليبيا ودعا إلى الإنضمام إلى الجامعة العربية كما نادى بصلابة للوحدة الوطنية كما هو معروف ومُثبت في تاريخ ليبيا [١] الحديث وحل بطريقة استعمارية - صحَّ ضدها عزم أُستاذنا أحمد الفقيه ولكن السيف أبى - إذ لم يمض على الإعلان عليه رسميا فترة الثلاث أشهر إلاَّ واعتقل زعماؤه ومؤسسوه بتهمة التآمر ضد اليهود - كما قدمنا - كذلك أدخلت في صفوفه جماعات فيما بعد أحدثت بضيق أفقها الانقسام والانفصام فأنصرم لتلعب السياسة البريطانية دورها الماكر في المخاتلة

(١) أنظر قضية ليبيا للدكتور الشنيطي .

والتخطيط بدقة لتكون البـــلاد في مستقبل الأيام على هـدى مطامعها .

وبعد أن استقال الأستاذ أحمد الفقيه حسن من رئاسة ذلك الحزب حفاظاً على نضاله المشرف انضم إلى حزب الكتلة الوطنية الحرة الذي كان يرأسه شقيقه الأستاذ علي الفقيه حسن وهو حزب معروف بنظافة وجهته في المطالبـة بوحدة البلاد والمناداة بـأن يكون نظام الحكم في ليبيا جمهورياً تختار له الأمـــة العناصر القديرة والمعروفة بإخلاصها وكفاءتها . وقد بذل شاعرنا المناضل ضمن هذا التيار جهوده وأعماله وبقي على ذلك إلى أن حُلَّ هـذا الحزب أيضا سنة ١٩٥٤ نتيجة لمرامي تلـــك السياسة وأوذي المخلصون من رجاله لتتولى مقاليد الحكم ـ بعد قرار هيئـة الأمم سنة ١٩٥٢ باستقلال ليبيا ـ واجهات هشة وعميلة حاشا أهل الغيرة والفكر منها .

وقد عاش ـ شاعرنا ـ في هـذا العهـد الملكي الذي امتـدت أيامه كما عاش الكثير من المناضلين مغفولاً عنـــه يسخِّر طاقاته

الباقية للنهوض بالأوقاف الإسلاميـــة ويتغنَّى في صمـت بشعره لا يكاد يتصل بحياتنا الفكرية والسياسية الجديدة إلاَّ من خـلال لُحون عذبة يرسلها بين الفينة و الفينة يبارك بهـا جهاد الجزائر أو الفدائيين أو يصور بها آلام نفسه وأساهـا ـ حتى إذا قصفت مدافع الثورة القصر والتاج وحطَّمت العـرش وأبعدت نظامـه وجد شاعرنا في دويها وقصفها صـوتا كان يحن إليـه ويشتاق لطلقاته فاستعذب منه (ما يهدم ويبني) وبادر من اليـوم الأول وهو الشيـخ الذي جاوز عقده السابـع إلى الثوار الشباب يهنئهم لأنهم أعادوا له الأمل وانطلقت قريحته الزاخرة بالنشيد والقصيد، وتمضي السنون ثقيلة وتتقدم بشاعرنا السن حتي وهن العظم منه وداهمته الأمراض والعلل التي تجـــرع كاسها في وحدته بصبر واحتساب إلى أن لبَّى نداء ربه وأسلم الراضية صبيحة الأحـــد ٩ / ١١ / ١٩٧٥ وشيـع جثمانه في موكب مهيب خرج فيه رفاق نضاله وعارفوا فضله وأبناؤه الروحيون وبكته فيه عيون البلاد كما تفطَّرت منه الأكباد .

وما كان عمر وموته موت واحد ولكنه بنيـــان قـوم تهدما

وبذلك طويت صفحة ناصعة مشرقـة كتبت بمداد النِّضال والتضحية وشهدت لها أقـــلام الحق بما سطر فيها من فخار وكفـاح .

أدبـه

في هذا البـاب ننعم النظر في أدب الأستاذ أحمد الفقيه حسن لنتبين من خــــلال آثاره ونصوصه النثرية والشعرية ملامحه ومذهبه فيه ونحدّد مكانته بموضوعيـة بين منـازل أدبائنـا وسنورد مـع الشكلين نماذج ومختـارات كافيـة نراها معينة على الحكم والتقييم.

نثره

غلبت على الأستاذ أحمد الفقيه حسن بين أدبائنا وأعلامنا الليبيين صفة الشّاعر حتى غطت بشهرتها على الكثير من نعوته الأخرى التي استطعنا أن نتبين منها ونحن نعرض لترجمته في الفصل الأول ـ فضله ونضاله وقدرته على التنظيم والإدارة زيادة على خلاله النفسية السامية ـ ولا نكران في أن شاعريّته كما سنبين نالت مكانة هامة بين شعرائنا الرواد ضمن تاريخ أدبنا الحديث بما أدته من أعمال فنية للنهوض بالشعر مما سيدعونا بعد هذا الفصل إلى أن نقف معها وقفة تحليل ونظر .

وفي هذه الكلمة أحب أن أجلي من نعوتـه نعتا قد لا يعرفـه إلا القليل وهو أن شاعرنا الذي غلبت عليه تلك الصفة كان بمقياس العشرينات والثلاثينات كاتبا ناثراً أيضا أمـــد بقدراته المقـالة وتطورها والنثر ونموه بنصيب لا يمكن اغفاله .

إن دور شاعرنا في النثر ـ على قلة اسهامه فيه ـ لا يتضـح إلا باستعراض المراحل المختلفة التي مرّ بها النثر عندنا طيلة قـرن ونصف تقريباً وأرى أن هـذا المقام لا يتسع للبسط في ذلـك لذا أشير إلى خطوط عريضة نبينها من خلال دراستي للنثر ويمكنني حصرها في ثلاث مراحل رئيسية :

١ ـ المرحلة الأولى وتشمل تقريباً قرنا من العهـد العثماني وقـد بدا فيها النثر خاملاً ضعيفا .

٢ ـ المرحلة الثانية وأخـــذ النثر فيها شكل حلقة وصل بين المرحلة السابقة والمرحلة اللاّحقة .

٣ ـ المرحلة الثالثة وهي التي ظهر فيها الجيل الجديد بنثره القوي المتعدد الطعوم .

إنَّ منزلة شاعرنا الكاتب تقف شامخـــة بين كتاب المرحلة الثانية الـذين قامـوا بتحرير النثر من ضعفه وفتوره وسلموه إلى الجيل الجديد بعد أن مهدوا لـه الطريق وأزالوا من طريقه العوائير .

لقد كان النثر في القرن الماضي مطبوعاً بطابع التخلف والذاتية موسوماً بسمة الانحطاط والقصور نظراً لتخلف الأُمة ، وليس النثر وحده بالتحقيق الذي أصيبت مقاتله في ذلك العهد بطرابلس بـل أصيب الشعر وفنونـه في تلـك المرحلة كما سنرى بالخمود والجمود أيضاً .

ومرد ذلك إلى ما أسلفنا القول فيه من ضعف الحياة العامـة التي لم تعن بأشكالها المنهارة على نهوض الأدب وازدهاره وأيضا لما عرفت به الدواوين الحكومية والدوائر الرسميـة يومئذ من العناية التامة باللغة التركية واللغات الأُوربية المختلفة مع الإهمال لشأن العربية وعلومها إلاَّ أثارة من نور كان يضرم شعلتهـا أشياخ مناضلون تحملهم على ذلك الغيرة والحميَّة .

وقد مرَّ بنا أن والد شاعرنا السيد محمد الفقيه حسن استاء واستنكف من أن يخرج ولده ضئيل الحظ والنصيب في لغة القرآن من المدارس التركية التي لم تعر لتلك اللغة في أواخر القرن التاسع عشر عناية فتوجه به إلى دروس خصوصية تلقاها على مشائخ الوقت في المعاهد الدينية التي تخرج بها وبما حصله من مطالعات في كتب اللغة والأدب قادراً على التذوق والإبداع في الشعر والنثر .

لقد سادت اللغة التركية في طرابلس لأسباب رسمية سياسية بطبيعة الحال ومكن لها بفعل ذلك على الألسنة والطروس حتى لقد كانت بفضل ذلك التمكين لسان الموظفين والمثقفين وبقيت العربية بما أصابها من إهمال في ذلك العهد موزعة توزيعين لا ثالث لهما بالاستقراء لغة ركيكة سقيمة هي أشبه بلغة الحياة اليومية ويستعملها من ضعفت ملكة الإنشاء عندهم في المكاتبات والرسائل وعقود البيع والزواج وما كان يضيرها في شيء لو اقتصرت على تلك الطائفة من العامة ولكنَّنا نجدها تمتد إلى الخاصة أيضاً مما يجعلها تشكل ظاهرة حرية بالتنويه ، وأنا أدلل

على ذلك بما قرأته لعالم كبير من طبقة الشيخ محمد كامل بن مصطفى هو العلّامة علي بن موسى الذي يكاتب تلميذا له برسالة يستعمل فيها على علوّ كعبه هذه اللغة ورحم الله ضياء الدين بن الأثير في قولته الشهيرة « لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب »[1]

ولغة أخرى يستخدمها الأُدباء المبرزون تعلقت بإنشاء أمراء الصنعة والتزويق في العصور القديمة فجاءت صوراً استعراضية مقيَّدة بالسَّجع مثقلة بالصنعة تعنى أكثر ما تعنى بالزخرف اللفظي والمحسنات البديعية لتستر وراءها معنى ساذجاً بسيطا ويمكنني أن أدلّل عليها ببعض ما دبجته يد صاحب السيف والقلم سليمان الباروني وما حبره قلم الأديب مصطفى بن زكري وما نطالعه في المكاتبات التي يتبادلها الشيخ إبراهيم الزمرلي وأحمد الفقيه حسن (الجد) .

لقد ساد هاذان النمطان في القرن الماضي عند جماعة المرحلة

---

(١) المثل السائر .

الأولى وأحسب أن الدّور الممتاز الذي نهضت به جماعة المرحلة الثانية لا يتمثل في شيء بقدر ما يتمثل في التخلص من ذينك النمطين المسفّين وليس ثمّة شك في أن مدافع الاستعمار هي التي نبهت الأدباء والكتاب إلى أدوارهم التي شغلوا عنها وحملتهم على النهوض بذلك العبء في التعبير عن الشعور القومي والإسهام الوطني . وبذلك الإحساس الذي تولد من طبيعة المرحلة صارت ألوان النثر العابث وأشكال التعبير الضعيف تتضاءل لما تأجّج من الشعور الوطني العنيد الذي أحسّ بذاته يقاوم ويتحدّى . ونتيجة لذلك ولتلك النهضة العلمية التي صارت تتنفس في العالم العربي ولهذه الوفود الطلّابية التي ما برحت تنهل من موارد الأزهر ومنابع الزيتونة وتتصل بأشكال النهضة لتسهم في صحافتنا الجديدة ظهرت اللغة التعبيريه الجديدة بعيدة عن الإسفاف قاصية عن الحذلقة لتشكل الإتجاه الجديد الذي أسميناه بحلقة الوصل بين ذلك العهد العثماني والعهد الأخير الذي سيبدو واضحاً بملامحه المميزة في أواخر النصف الأول من القرن العشرين على أيدي نخبة مثقفة من الشباب أمثال الأساتذة علي المصراتى

وخليفة التليسي ومحمد المهدي أبو حامد وعلي الغودي وفخري العرادي ومظفر الأمير وعبد القادر أبو هروس .

لقد أصبح النثر والشعر في المرحلة الثانية فنين يمثّلان رسالة الأديب في الحياة ويتحدثان عن آمال الجماهير وآلامها ويعبران عن المعاني التي تعتمل في الصدور بوضوح ليتلقى الناس عنهما ويفهمون منهما ، فاللواء الطرابلسي إذا أخذناها كمثال يعبر عن كتّاب تلك الفترة تجدها تعكس تلك المعاني جميعها فهي كما يقول الأستاذ أحمد راسم قدري « الجريدة التي رفعت رأس البلاد عالياً وترجمت عمّا يخالج نفوس الوطنيين ويشغل بالهم وعمّا يساورهم من قلق على مستقبلهم ومستقبل أبنائهم وصمدت في وجه الغاصبين طويلاً حتى شرّد أصحابها وزالت من الوجود »[1]

على أن ذلك التحول التعبيري أو النثري الواضح لا يحملنا على القول بأنه كان يسير حسب خطة واضحة ووجهة محدّدة

---

(١) القلم الجديد ١٩٤٦ - ١٩٤٧ .

ولا يدعونا إلى التسرع بالقول بأن فن المقالـة عند هذه الجماعـة وعند شاعرنا الكاتب أخذ ملامحه وأشكاله المقررة ولكـن الذي يمكننا قوله مطمئنين واثقين أن النثر في هذه المرحلة أخذ مساراً جديداً وطابعاً خاصاً هو بمقياس تلك الفترة طابع ذو تأثير وفعاليَّة .

وفي الحق أن آثار شاعرنا النثرية في تلك المرحلة كانت قليلة بالدرجة التي قد تحمل البعض على تصوُّر أن دور شاعرنـا فيها لا يستحق عقد مثل هذا الفصل لأنه لا يعطينا فكرة كاملة لتصوُّره للمقالة ووجهته في النثر ـ على أن تقديرنا لظروف تلك المرحلة التي شاع فيها الشعر كلون محبَّب من الأدب وامكانيـات الصحافة وشكلها وقلة اكتراث الأُدباء لمعالجة فن المقالـة يومئذ كلها بواعث مهمة جعلتنا نعقد هذا الفصل بالرغم من قلة الآثار التي تدعمه .

ولا أخفي على القارئ الكريم اني أطلت الصحبة للجرائـد والصحف التي كانت تصدر في بلادنا منذ أواخـر القرن الماضـي

الى الستينات وأدمنت المطالعة فيها ولكنّي لم أعد من هـذه الرحلة إلا بقليل من الآثار النثرية لشاعرنا لا تذكر وإن كان في الوقـت نفسه لا يمكن إغفالها .

ويمكننا من الناحيـة الشكلية أن نقسّم تلـك الآثار على قلّتهـا إلى إتجاهين :

١ ـ كتابات رسمية أو شبه رسمية كصياغته للقانون الأساسي للنادي الأدبي والحزب الوطني وتعريفه بمكتبة الأوقاف ومؤسسها مصطفى الخوجة الكاتب والرسائـل والبرقيات الـتي تبادلها بخصوص الحزب والنادي مع أصحاب الشأن .

٢ ـ بعض المقالات التي نشرها في الداخل والخـارج وقـد قصد بإنشائها أن تؤدي ما تؤديه المقالة ونحن نعـول في عرضنـا هذا على هذا اللون كثيراً لأنّـه يوضح دوره بيسر وأنا أحب أن أورد هنا مقالتين للأستاذ أحمد الفقيه حسن الـذي شارك بقلمـه السيال في زمن بعيد قلّ فيه أصحـاب الأقلام وأسوقهـما لقيمتهما التاريخية من جهة ولأنهما شاهدان على كتّاب المرحلة الثانية ودورهم ودور شاعرنا بينهم من جهة أخرى .

لقد نشرت المقالة الاولى تحت عنوان « النادي الأدبي » بجريدة اللواء الطرابلسي لسان حال حزب الإصلاح الوطني بتاريخ ١٤ صفر سنة ١٣٣٩ ـ ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٠ .

وقد بدأت هذه المقالة ببيان لفائدة العلم وجدوى تحصيله وأهميَّته بالنسبة للفرد والمجتمع ونرى الكاتب يدعم حديثه عن ذلك بما يحبه قراء تلك المرحلة من كثرة الشواهد الكافية والمناسبة وقد خلص بعد ذلك إلى مناشدة الناس لاحتضان هذا الوليد الجديد « النادي الأدبي » قائلًا :

« لهذا يجب علينا معشر الطرابلسيين (الليبيين) عموماً بذل الجهد في نشر العلوم والمعارف في بلادنا بكلّ وسيلة مشروعة وشدّ أزر بعضنا بعضاً حتى نجدّد مجدنا القديم ونخلد بعدنا الذكر الجميل وأن ذلك لا يكون إلا بإنشاء المدارس لتعليم أبنائنا وتهذيبهم وفتح نادٍ يجمع متعلّمي الأُمة وأدبائها لإلقاء المحاضرات العلمية النافعة وبثّ ما استحسن من الآداب والحث على التمسك بالشريعة والكتاب وها قد عزم بحول من له القوة والطول نخبة

من الطرابلسيين على إنشاء نادٍ لهذه الغاية وهي اقتفاء أثر العلوم ونشرها في هذا القطر الطرابلسي الذي أصبح اليوم فريسة للجهل والجهلاء ! بعد ما كان نور العلم يتلألأ في أنحائه ، وقد اتفقوا - كثر الله من أمثالهم - على تسميته (النادي الأدبي) والغاية والهدف الذي يرمي إليه هي إحياء اللغة العربية وتأسيس مكتبة للمطالعة وإلقاء المحاضرات العلمية والإجتماعية وسيبرز للعيان بعد الاستحصال على الرخصة اللاّزمة من الحكومة وإنَّ لنا في الأُمة الطرابلسية وطيد الأَمل في معاضدة رجال النادي الأَدبي وإعانتهم مادياً ومعنوياً فإلى متى نحن خامدون جامدون كأنَّنا خشب مسنَّدة لانبدي ولا نعيد ألا نأخذ بقول القائل :

أيحسن يا قوم أن نقعدا وقد آن أن ينهض القاعدون

أيها الطرابلسيون أنفوا الضغائن والأَحقاد وعاضدوا بعضكم بالثَّبات والإقدام واحكموا قواكم بالإتحاد وكونوا كجسم يتألم بتألم بعض أعضائه وثابروا على العمل النافع بحسن نيَّة وإخلاص نحو الوطن في السر والعلن وكونوا من الرجال الصادقين العاملين

الذين يُتبعون الأقوال بالأعمال قبل أن يأتينا يوم لا يسمع فيه قول ولا يُجدي عمل » أ هـ .

وقد أردف شاعرنا الكاتب ذلك المقال بمقال آخر جعل عنوانه « الجمعيات الأدبية وفوائدها » نشر بتاريخ ٧ ربيع الأنور سنة ١٣٣٩ ـ ٨ نوفمبر سنة ١٩٢٠ أكّد فيه على أهميّة النوادي والجمعيات الأدبية في حياة الشعوب ونادى بمساندة النادي الأدبي بطرابلس (لأن بلادنا التي ضرب الجهل فيها بجرانه توجب على أبنائها معاونة مؤسسي النادي الأدبي إذ هو أول مشروع علمي إجتماعي أسس في هذه البلاد لإحيائها وانتشالها من هُوّة الخمول إلى أوج السعادة والكمالات)[1] .

فالنص كما رأيت نثر يمثل مرحلة وأبعادها أصدق تمثيل ، مرحلة حاولت أن تبرأ من ضعف الأساليب وعقمها لتتلمّس طريقاً جديداً في التعبير والأداء وبالرغم من قرب تعبيره العادي إلا أنّه يمثل في تصوره تحولاً واضحا يمكن أن يدرك بسهولة .

---

(١) اللواء الطرابلسي .

١ ـ فأنت ترى أن هذه المقالة ذات موضوع محدَّد وهو موضوع ليس بالتافه بل هو موضوع يعكس في صدق الشُّعور القومي وينبع منه بل إن المتأمِّل في خاتمته يرى فيه منشوراً سياسياً يحرض على الاستعمار ويدعو للانتفاض وهو معنى جديد لا تعثر عليه في نثر المرحلة الأُولى .

٢ ـ وتختلف في النص طريقة المعالجة للشكل أيضاً فهو مغاير تمام المغايرة عن الشكل في العهد الأَول فالقالب ليس فيه ابتذال العامية ولا جعجعة المحسنات اللفظية ، أسلوب بسيط قريب يعبر بوضوح عن فكرة وطنيَّة معيَّنة .

والمقالة الثانية التى تعيننا على فهم نثره وإدراك مشاركة الأُستاذ أحمد الفقيه حسن في ذلك الطور تلك الكلمة الممتازة التي عقب بها سنة ١٩٣٠ على الأمير الشهابي وهي لا تخلو من طرافة ونسوقها هنا كاملة لأَنَّها تدل في تقديري على ثقافة الرجل اللغوية وطريقته في التناول كما تشير إلى غيرته التي عرف بها على التراث العربي والإسلامي ومشاركة فكرنا الليبي في مجال المراسلة والمناظرة مع أقطاب الفكر العربي منذ أوائل الثلاثينات .

فقد ألقى الأمير مصطفى الشهابي وهو شخصية علمية معروفة في تاريخنا الفكري الحديث بردهة المجمع العلمي بدمشق محاضرة جعل عنوانها « بحث في التبغ وضرائبه » وهو بحث مُطوّل خصّ به مجلة المقتطف التي أسسها الأُستاذ يعقوب صروف وفارس نمر وبدأت هذه المجلة بنشره على حلقات منذ غرة أكتوبر سنة ١٩٢٩ وممّا جاء فيه : [ان التبغ لفظة عرّبت بها كلمة TABAC الأعجمية ويقول بعض المؤلفين إن هذه الكلمة التي عمّ استعمالها في اللغات الأجنبية للدّلالة على النبات المذكور هي مشتقة من لفظة تا باكو وهو اسم يطلق على جزيرة صغيرة من جزائر الأنتيل في أميركة ويقول آخرون إنها مشتقة من كلمة تا باسكو TABASCO وهي جزيرة أخرى واقعة في خليج المكسيك ويزعم غيرهم أنها لفظة كان يستعملها سكان أميركة الأصليون لورقة ناشفة يحاط بها نبات التبغ فاقتبسها عنهم الرواد الأوّلون) ويستطرد الأمير الباحث قائلا : (وليس لهذا النبات لفظة عربية لأنه ما كان معروفاً في بلاد العرب قبل كشف أميركة وهو لم ينقل إلى بلادنا (بلاد الشام) إلا في

القرن السابع عشر من الميلاد وأشهر لفظة تسميه العرب بها هي الدخان أو التتن وكلاهما لا يدلان على أن النبات كان معروفاً قديماً وكذا لفظة التنباك للنوع الآخر المعروف]

ولا يطالع الجزء الثاني من المجلد السادس والسبعين القراء إلا ونجد كلمة نثرية لأحمد الفقيه حسن يعقب فيها على مقولة الأمير الشهابي وهي مناظرة ماتعة ترد للمجلة سنة ١٩٣٠ لأول مرة من طرابلس الغرب المجاهدة وقد جعلتها المجلة في الصدارة من باب المراسلة والمناظرة يقول كاتبنا فيها : « أوقفتني الصدفة على مقال منشور في عدد اكتوبر سنة ١٩٢٩ للأمير مصطفى الشهابي مدير أملاك الدولة بدمشق تحت عنوان « بحث في التبغ وضرائبه » تعرض فيه لتأريخ التبغ وتحليته (وصفه) وخواصه ومنابته وعزا أصل الكلمة لشتّى اللغات الأعجمية ونفى وجودها في اللغة العربية بقوله « وليس لهذا النبات لغة عربية لأنه ما كان معروفاً في بلاد العرب قبل كشف أميركة » وأورد أيضاً لبعض المؤلفين تأييداً لهذا القول (إن هذه الكلمة التي عمّ استعمالها في اللغات الأجنبية للدّلالة على النبات المذكور هي مشتقة من كلمة تاباسكو

وهي جزيرة واقعة في خليج المكسيك إلى آخر ما قال حضرته ـ هذا ولما كان التبغ معروفاً عند العرب قبل الاسلام وبعده وينبت ببعض بلادها كالحجاز وما جاورها ذكرتـه العرب في أشعارها بلفظة الطباق وهو اللفظ الإفرنجي الذي ساقه الأمير وقال إنـه عرب بلفظ تبـغ ويمكننا هنا أن نقول أن لفظة تاباكو أو طباق محرفة عن لفظ (طُبَّاق) العربية الواردة في أشعار العـرب والدليل عليه قول تأبط شراً :

كأنَّما حَثْحَثُوا حُصًّا قوادمـه ‏ ‏ ‏ أو أم خِشف بذي شَثٍّ وطبّاق

وذكر الطباق ابن سيده في مخصصـه ج ١١ ص ١٤٢ ، ١٤٣ بلفظ الطباق وقال نبات تأكله الأوعال والغنم وقال غيره ينبت في أرض الحجاز وترعاه الظباء والأوعال ومما يستطرف ذكره هنا قول أبي العلاء المعري وهو حجة فيما يقول :

ومن العجائب أن حلْيك مثقل ‏ ‏ ‏ وعليك من سرق الحرير لفاق

وصويحباتك بالفـلاة ثيابهـا ‏ ‏ ‏ أوبارهـا وحليهـا الأوراق

لم تنصفي غذيت أطيب مطعم ‏ ‏ ‏ وغذاؤهن الشَّثُّ والـطُبَّاق

هـل أنت إلا بعضهـن وإنمـا ‏ ‏ ‏ خير الحيـاة وشرهـا أرزاق

وفي لسان العرب (الطُبّاق) نبت أو شجر قال أبو حنيفة والطباق شجر نحو القامة ينبت متجاوراً لا تكاد ترى منه واحدة منفردة وأورد بيت تأبط شراً المار ذكره .

وروى عن محمد ابن الحنفية أنه وصف من يلي الأمر بعد السفياني فقال : « يكون بين شثّ وطباق » والشث والطباق شجرتان معروفتان بناحية الحجاز وقال صاحب القاموس « الطباق » كزبار شجر منابته جبال مكة . أه باختصار .

هذا ما عنَّ لي ذكرته ولم أقصد به الطعن أو الانتقاد على سعادة الأمير الذي أُجله لمزاياه ولما أراه من آثاره بين حين وآخر منشوراً في المجلات العلمية مما يجعلني لحضرته من الشاكرين وإنما دعاني إلى هذه الملاحظة توجيه نظره خصوصاً ونظر كثير من الباحثين في هذا العصر الذي يحاول فيه العرب النهوض لمجاراة الأُمم المتمدينة والعمل لإحياء الآثار والمؤلفات العربية النافعة .

أيليق بنا يا عطوفة الأمير والحالة هذه إذا واحد منا وجه نظره إلى بحث في موضوع ما أن ينصرف بكليته في مراجع

بحثه إلى المؤلفات الإفرنجية (وإن كان البحث اسلامياً) ويجعل ما فيها حجة قاطعة على ما فيها من تحريف بدون أن يخطر بباله أو يدور بوهمه وخياله مراجعة التآليف العربية التي أثقلت كاهل الدهر وأنارت الخافقين ولا يزال ذوو العلم من الغربيين إلى اليوم ينقبون عنها ويبحثون فيها ويترجمون منها الفصول التي تهمهم - أليس نحن أحق بإحياء آثار السلف والإقبال عليها بحثاً وتنقيباً وتصحيحاً وتهذيبا وأحق بالاستفادة منها وإفادة النابتة الجديدة من أبنائنا بما فيها من الخير الكثير.

ننتظر الجواب عن هذا من أساطين البيان الذين نصبوا أنفسهم للنهضة العربية في هذا الزمان . » أهـ [1] .

ويلاحظ القارىء أن ما عقبنا به على المقالة الأُولى يمكن أن يقال هنا فالمقالتان تجمع بينهما خصائص جديدة لم تكن مألوفة في النثر قبل هذه المرحلة من حيث الإطار والمحتوى وهي

---

(١) عقب الاستاذ مصطفى الشهابي بجواب نشر بالمقتطف ابريل سنة ١٩٣٠ .

الخصائص التي عرف كتاب « اللواء الطرابلسي » و « الوقت » الذين نهضوا بالنثر من عثاره وأمدوه بالطارف النافع الذي مثل بشكله المميز حلقة وصل بين نثر علماء وأدباء العهد العثماني ونثر الجيل الجديد المتفتح الذي بدأ يظهر منذ الأربعينات .

والخلاصة أن شاعرنا زيادة على ما أسهمت به قريحته من نشيد وقصيد أمدَّ النثر كذلك بمقالات قليلة متواضعة ومدد زاخر من النصوص والرسائل والبرقيات شكلت على قلتها ظاهرة جديرة بالتنبيه مع آثار كتاب تلك الرحلة وجعلته يوصف في تاريخنا الأدبي الحديث بأنه من أوائل الكتاب الليبيين كما أنه من أوائل الشعراء الرواد في هذا القرن ، وقد أدى رسالة قيمة بنثره كما أداها بشعره داخل ليبيا وخارجها وأحسب أنه لو استمر في معالجة مثل هذا النثر على درب عمره الطويل لأعطى لشخصيته الأدبية ملامح جعلتها أكثر عمقا ولأمدنا من تجاريبه بزاد تفخر به المقالة عندنا كما افتخر ديوان أدبنا الليبي بشعره .



شعــره

صدرت الطبعة الأُولى من ديوان الشاعر المناضل سنة ١٣٨٦ - سنــة ١٩٦٦ على نفقــة وزارة الاعــلام والثقافـــة الليبية في (٣٧٧) صفحة وهي طبعة عادية مرفقــة بقائمــة من الأخطاء المطبعية .

وقد صدرها الشاعر بتعريف موجز للديوان والمصادر التي استمد منها في تعليقاته وشروحه اللغوية ثم اهــداء لهــذه العصارة التي استغرقت جزءاً كبيراً من حياته إلى روح والـــده السيد محمد الفقيه حسن مع استهلال لطيف بقصيدة وجههــا إلى أبنــاء

الضاد بيَّن فيها بإجمال مذهبه الشعري الذي يجاري الأقدمين في عمود الشعر وفي الأبواب المعروفة عندهم - وأشير هنا إلى أن للشاعر قدراً كبيراً آخر من القصيد يشكل وحده ديواناً كاملاً إلاَّ أنه لا يزال مخطوطاً بقلمه منع بعضه من النشر في العهد الملكي - وجادت ببعضه الآخر قريحة الأديب بعد الطبعة الأُولى للديوان،وفي هذا البحث سأقتصر على دراسة السفر الذي بين أيدي الناس وهو الديوان الذي شرق وغرب ولم يحظ لعلة أو لأُخرى إلا بالتجاهل والعزوف آملين أن يلقى القسم المخطوط من النشر والدرس في مستقبل الأيام ما يقف بنا على جوانب أخرى من مكانة شاعرنا الأدبية - لم تتوصل إليها هذه الدراسة لتتكامل الصورة وتتاصل .

ومن المزايا الشكلية التي نحب أن نذكرها للديوان في مفتتح البحث أن الشاعر عمد إلى تقسيمه إلى أبواب يستقل كل باب منها بلونه وشكله محاولاً أن يدرج القصائد ذات الموضوع الواحد أو الفكرة الواحدة ضمن بابها المحدد . فهناك المدائح النبوية والوطنيات والرثاء والتأبين والحنين والتشبيب والفخر والحماس

والشعر القصصي والهجاء والانتقاد ولكن رغم ذلـــك التقسيم الموضوعي الذي حـرص عليه شاعرنا تـداخلت كما يرى المتتبـع ـ الأبواب والمواضيع قليلاً ـ وميزة أخرى تذكر للديوان وهي تأريخه للكثير من قصائده وتعريفه بها ـ وبالرغم مما يقـــال فيما نحسبه مزية من انتقاص ـ إلا أنها في الحقيقة وسيلة ضرورية تعين الدارسين والنقاد على فهم الآثـار ودرس المراحل التاريخيـة التي قيلت فيها كما تعين على تتبع نمـو الأديب الفني خـلال رحلة حياته .

والديوان حفل بأشعـار مختلفة الطعـوم قيلت في مناسبات مختلفة وأحداث متعدّدة لذا جاء غاصًّا بالأغراض حافلا بالمواضيـع ممَّا لا يسهل معه فهمها ودرسها بغير ذلك .

هذه نظرة خارجية قد تعين بعض الشيء على تفهم أجـواء الديوان الداخلية لكن الدرس الموضوعي إنَّما يحصل بالانغماس في فنه واستبطان تجاربه الشعورية وهذا كله يحملنا فـيما أذهب على بحثه من جهتين رئيسيتين :

١ ـ جهة الإتجاه الانتمائي الأدبي وفيه نبحث عمّا إذا كان شاعرنا يتبع مدرسة أدبية معينة لها فلسفتها الفنية وطابعها الذاتي واطلاق مدلول مدرسة هنا فيه الكثير من التجوز كما سنوضح .

٢ ـ جهة الناحية الفنية الإبداعية التي تتناول النصوص في الديوان لنقف على ملامحها من حيث الصياغة والهيكل والمعاني وهي في الحقيقة فرع عن أصل لا تقوم بذاتها ولا تستقل عند الترجيح بسماتها ولكنها تعين على بيان منزلة الأدب والأديب بين منازل أنداده في المدرسة التي ينتمي إليها .

فقد ظهر لنا من ترجمة الشاعر أنه ولد في أواخر القرن التاسع عشر في بيئة فكرية يسودها العقم والتحجر كبقية البلدان العربية ويتردّد في جنباتها من الأدب صوت خافت هو صدى المدرسة التقليدية التي سادت منذ قرون بما كانت تعنى به من زخرفة لفظية وصنعة وما تثقل به القصائد والكتابات والرسائل من محسنات بديعية متكلفة ومعاني مكرورة تافهة لا يتبين منها

وجدان الشاعر ولا عاطفته ، وقد اتصل شاعرنا بهـذه المدرسة بقراءاته لشعر الخشاب وقابادو وعن طريق أعلامها في طرابلس الغرب الذين اتصل بهم اتصالاً مباشراً أمثال جده أحمد الفقيه حسن ومصطفى بن زكري وسليمان الباروني والشيخ محمد الضاوي عمد هذا الإتجاه في أدبنا .

وقد كان حظ مترجمنا في التأثر كما بيَّنا غير مقصور على هذا الاتصال ، إذ كان نصيبه من الدراسة الأدبية واللغوية وافراً أطل به على عيون الذخائر والنفائس واتصـــل بأسبابه بشعر الفحول من الاسلاميين والعباسيين ولاسيما أبو العلاء المعري الذي عكف مترجمنا على شعره وأدبه ، والديوان الذي بين أيدينا يفصح بوضوح عن هذه الصلة كما ينبيء من قريب عن الصلة بينه وبين كتب التراث الأدبي واللغوي .

وغير خافٍ أن حظ شاعرنا من اللغـات الأجنبية والثقافـة الغربية كما أسلفنا كان ضئيلاً ، رغم دراسته للإيطالية والفرنسيـة والتركية بحيث يعز علينا أن نجـد لها روافـد وآثاراً واضحة في أدبه إذا استثنينا تلك الترجمة التي ترجمها لأبيـات إيطاليـة

للشاعر مالفاتي ص ٣٢٤ وهذا القصور يقعد به غالباً في إطـار الفكر والأدب العربيين كأغلب شعرائنا من أترابـه ولا شك في أن الأَديب الذي يفتح نوافذه على ثقافة أجنبية يستروح أنساماً يثرى بها أدبه .

وبذلك يمكننا أن نقول في اطمئنان أن ثقافة الشاعر عربية ليس فيها تيار أجنبي يذكر وأن ما كان له من لغات تعلمها على صورة غير متعمقة لا ينهض به إلى التمرس بآثار كتـاب وأدباء تلك اللغات ولذا فإن محاولة تطلب انعكاساتها في شعره ضرب من التكلف .

وشاعرنا حينما تفتحت مواهبـه واتقدت قريحته وعـاد بذلـك الزاد من الثقافة العربية الأَصيلة في أوائل هـــذا القرن فتـح عينيـه كالرواد من شعرائنـا على أدب كـان يسود في تلـــك البيئـات ويشيع في الأَسمار والمنتديات (من مثل أن ينظم الشاعر قصيدةمن حروف معجمة أو مهملة أو تقرأ أبياتها من آخرها إلى أولها على نحو ما تقرأ من أولها

إلى آخرها أو ينظم قصيدة تأتلف من أوائل الحروف في أبياتها أبيات أخرى أو ليستخرج منها تاريخاً بحساب الجمل)[1] .

وعلى الرغم من أنه ليس لشاعرنا ثقافة أجنبية قوية تزهده في ذلك الضرب الباهت الذي لا يعبر عن شعور نفسي أو اجتماعي، إلاّ أنه اهتدى بفطرته لفساده ولم يرقه لونه الشاحب مما حدا به في فترة مبكرة إلى تلمس مثال أدبي بعيد عن التعسف والتعمل قريب من الأَصالة والمعاصرة يعبر عن حياة صاحبه ووجدان الأُمة .

ويبدو أن حالة عامة من الشك في جدوى ذلك الأُدب العقيم كانت تسود وتترقب في لهفة وشوق إلى عبقري من الشعراء الفحول يعيد للشعر رواءه وفعاليته وينقذه من الآسار التي كبلته قرونا حتى (شاء الله أن يبعث من ينهضه من كبوته ويقيله من عثرته ويلقي بهذه الآفات والأَوضار بعيداً فيقلب الميت حياً والضعيف قوياً والمعدم ثرياً)[2] .

---

(١) الادب العربي المعاصر في مصر للدكتور شوقي ضيف ص ٤٠ .

(٢) في الادب الحديث للاستاذ عمر الدسوقي ص ١٦٧ .

ذلكم هو رائد الشعر الحديث منذ منتصف القرن التاسع عشر فارس الشعراء - الذي أحيا بشعره النابغ ما اندرس وبصياغته الفذة التي تأثر فيها بالعباسيين ما انطمس - محمود سامي البارودي .

لقد أشبع هذا العبقري بفنه نهمة الطالبين لصادق الشعر بما أحدثه فيه بعصاته السحرية من قوة ومائية جعلت الناس يكبرونه ويقدمونه ويشيدون به في المشرق والمغرب .

وكان مما أعان على هذا التقديم كتاب ألّفه الشيخ حسين المرصفي جعل عنوانه « الوسيلة الأدبية » أذاع به (صورة النماذج الفنية الطبيعية في الشعر القديم وأشاد بالبارودي إشادة واسعة فانشد طائفة من قصائده وخاصة تلك التي نظمها معارضة للشعراء العباسيين وحاول أن يظهر تفوقه على من عارضهم بما أختص به من ميزات وسمات فنية وبذلك هيأ أذهان الشعراء وأعدها لطريقة البارودي الجديدة)[1] .

---

(١) في الادب العربي المعاصر ص ٤٦ .

وبهدي من ذلك النبوغ وبفضل هذه الإشادة التي خصّ بها الشيخ المرصفي البارودي دوى قصيده في أسماع عصره حتى لقد كان نجم الساري تعلقت به قلوب الشداة في مختلف الأمصار وزاد لألاؤه بما انضوى تحت لوائه من فحول القريض الذين اقتبسوا من نوره واغترفوا من معينه كأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وصادق عرنوس ومطران وأحمد محرم ومحمد النجمى في مصر والزهاوي والرصافي والكاظمي والشبيبي في العراق وعلال الفاسي ومصطفى خريف ومحمد العيد آل خليفة في المغرب العربي وبهذا التحلق قويت شوكة هذا الرائد وطابت موارده وعمق إتجاهه كما خفت حس المدرسة التقليدية وتضاءل دورها إذ بداعي البعث والإحياء الجامع بين الأصالة والمعاصرة في وجهة البارودي كبتت أنفاس المدرسة التقليدية وتشكلت تبعاً لذلك المدرسة التي صارت تعرف عند النقاد اليوم المدرسة التقليدية الحديثة أو المجددة وهي إتجاه كما سنبين تجمع بين أتباعه خصائص تكاد تكون موحدة بينهم .

فالشعر فيما نطالعه في انتاجهم متين النسج قوي الأداء

يلتزم الروي الواحد والقافية الواحدة لا يخرجون في مضموناتهم عن أغراض القدماء في القصيد إلا بما تلجىء إليه ضرورة العصر وحاجته وأشكال الحياة الجديدة كإضافة أبواب مستحدثة مثل الوطنيات والشعر المسرحي والقصصي والعلمي مع التركيز على مبدإ الغيرية بالتعبير عن النزعة القومية والاجتماعية ، فلم يعد الشعر في تصور هذه الجماعة مجرد أدوات لتزجية أوقات الفراغ والعبث بل صار فناً له رسالته في الحياة .

وقد رسم البارودي لأتباعه بعضاً من منهاجه الشعري والفني ليهتدوا به وينسجوا على منواله وهو في الحقيقة يمثل معلماً للثورة على الشعر التقليدي الباهت ؛ قال في مقدمة ديوانه « وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه وائتلقت معانيه وكان قريب المأخذ سليماً من وصمة التكلف بريئاً من عشوة التعسف غنياً عن مراجعة الفكرة فيه تهذيب النفوس وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق » [1] .

---

(١) من مقدمة الديوان ص ٣ - ٤ .

وجماع تلك الملامح وحّد فيما نعتقد بين معظم هؤلاء الشعراء في الشرق وفي الغرب وأعطى لأدبهم بعامة سمات تدني بعضهم من بعض وتشكل من التقارب ظاهرة أدبية غالبة وغير منكورة .

وقد شدّ البارودي بأقواله النظرية وبأعماله الفنية التطبيقية كما أسلفنا الكثير من شعراء الأُمة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر كما شدّ الكثير من أدبائنا باتجاه مدرسته في البعث والإحياء أمثال الشيخ أحمد الشارف وأحمد رفيق المهدوي وأحمد قنابة وإبراهيم الهوني وغيرهم من الشعراء ممن يقف بينهم أستاذنا أحمد الفقيه حسن وافر الحظ في التأثر .

ولا أحد يستطيع أن ينكر الدور الذي قامت به هذه الجماعة في الأدب العربي بليبيا ، فقد استطاع هؤلاء الشعراء أن ينفخوا بتأثرهم في هيكل شعرنا الذي أُصيب بالموات والرتابة ويجددوا كما جدّدت مدرسة البارودي في وجه هذا اللون من الفن ويبعثوا فيه حياة وقوة .

ولسنا نزعم أن الأدب في ليبيا كان على صورة واحدة من

العقم والجمود ولا أذهب إلى أنَّ الأدب في برقة في أواخر القرن التاسع عشر كان مماثلاً لما هو موجود في طرابلس الغرب لأن ذلك لا يسلّم به التاريخ الأدبي عندنا ولا يقرُّه إذ أن الناظر في أدب شِقّ وطننا الشرقي في أواخر القرن الماضي يجد فيه أثارة من قوة في الصياغة والإلتزام قد لا نجدها في شعر الطرابلسيين بل حتّى في بعض البلدان العربية لما توفر له من ظروف معينة ومنعشة على أن هذا الأدب يجري بالرغم ممّا ذكرنا مع الشعر التقليدي في طرابلس (في كثير من صفاته الاسلوبية كالأخذ ببعض صور الصناعة اللفظية من جناس وطباق وفي استعمال بعض التعبيرات والمجازات المطروقة المألوفة) [1] .

فشاعرنا إذاً من هذه المدرسة التقليدية المجدِّدة التي رفعت شعار البعث والإحياء في بلادنا للنهوض بالشعر الذي شهد في

---

(١) الحياة الادبية في ليبيا للدكتور طه الحاجري ص ٦٢ .

طرابلس انحداراً منذ قرون بل ومن المتأثرين مباشرة كما يعتد رحمه الله دائماً برائد هذا الشعار وباعثه .

وقد شدَّ البارودي شاعرنا المناضل إليه ببواعث متعددة بعضها فيما نرى عاطفي محض نجم عن التقارب في مجادة الأصل وحـــدَّة الطموح ، وبعضها موضوعي نشأ عن تقدير خالص لبراعة البارودي الفنية والتي شكلت كما أوضحنا ظاهـرة مُلفِتة للنظر في أدبنا الحديث .

وبدافع من تلك البواعث انكب شاعرنا على ديوان البارودي يتفيأ ظلاله ويتفهم أسراره ويتعمق أحاسيسه وصياغته ويحفظ روائعه ويقلّده .

ومن خلال هذا التأثـــر المستوعب لمحطّ إكباره وموطن فخره وإعجابه ولآثار تلاميذه الذين انخرطوا في سلكه هنا وهناك وكان تأثره بهم على أنصباء متفاوتة . اتصل زيادة على اتصاله المباشر بالتراث القديم عند أبي العلاء والمتنبي والبحتري وأضرابهم بهذه المدرسة التقليدية الحديثة فأفاد من تجربتها حتّى

لقد جاء ديوانه الذي بين أيدينا حلقـة مشرفـة من دواوينها وصورة من تقاليدها وأهدافها إذحاول به أن يتشبَّه بأدبهم ويوفر لشعره الأجواء الفنية التي وجدها عندهم حتى أنك لا ترى بفعل هذه الوشيحة ثمة فارق كبير بين مذهبه الشعري العـام ومذهب المشاهير من هذه المدرسة الذين له فيهم هوى ومتعلق .

هذا هو الملمح البارز في تحديد انتماء فن الأستاذ أحمد الفقيه حسن لوجهة أدبية وفنية وهو كما رأيت يدل على تبصر في نشدان المثل الفنية الرفيعة صرفه عن ركيك الشعـر ومتخاذله وأسرع به في هذه النسبة .

على أن شاعرنا ـ وهذه حقيقة تمليها بعض قصائد الديوان ـ وقد استروح هذا الروح الجديد في مدرسـة البعث والإحيـاء لم يقدر مع انتمائه الأكيـد الذي أكَّدنـا عليه على التخلص كليًّا من رواسب المدرسة التقليدية والفكاك من معايبها إذ أن بعضـاً من أشكالها السلبية تظهر رؤوسها في الديوان سواء في مظاهر الصنعة المتكلفة كما نجد ذلك في باب المدائـح النبويـة التي نرى فيها

(الناحية الفنية إذا جردت من الديوان ـ جدلاً ـ لا تدل على قريحة مرنة تلتزم إظهار الصورة وتتوخّى الألفاظ الدالة وفق تصوير وصنعة أخّاذة) [١] وبعض المزدوجات والمقطعات التي قيلت باقتراح أو في الكثير من الكلمات القاموسية الحوشية التي تجعل معاني القصيدة خارجها أو في بعض المدائح التي غلبت عليه المجاملات فيها وهي أحيانا لا تصدر عن عاطفة قوية مما قرّبها إلى البساطة والنثرية المصبوبة في قوالب من النظم .

ولعلّ قرب الصلة بين الإتجاهين أو التداخل الزمني بين الفترتين الأدبيتين لم يمكناه كما لم يمكنا الكثير حتى من فحول هذا الإتجاه بل ومن الشعراء الثائرين عليه من التخلص المطلق .[٢] ولذلك فلا غرابة في أن يجد قارىء الديوان هذا الإمتداد السلبي من رواسب المدرسة التقليدية حينما يطالع حشداً هائلًا من الإخوانيات والتهنئات والتقريضات

---

(١) من مقال للمؤلف ـ الاسبوع الثقافي العدد ٦٢ .

(٢) راجع الادب وفنونه د. عز الدين إسماعيل ص ١٧١ .

والمعارضات والتشطيرات والتضمين كما يطالع في باب المنوعات عشرات الأبيات بحساب الجمل في التاريخ على طريقة (أبجدهوز) لمناسبة تأسيس مسجد أو مشروع خيري وهي أشكال ونقائص تضعف من قيمة الفن الذي يؤثر في الحياة ويحركها كما أنها من مظاهر القصور والضعف في أدب الإنحطاط التي عرفت به وجهة الأدب قبل البارودي .

وبهذه الظاهرة يتبين لنا في الديوان دون شك تياران أدبيان متباينان لا نجد لهما ثالثا .

تيار التقليد الباهت فيما تمثله مدرسة ما قبل البارودي من محدودية وضيق وشاعرنا في هذا اللون لا يمتاز عن سابقيه من شعرائنا الليبيين في طرابلس الغرب أمثال مصطفى بن زكري والشيخ محمد الضاوي والشيخ البوصيري والباروني وجده الشاعر بشيء.

وتيار البعث والإحياء الذي انتفض من قيود التكلف والتعسف في الصنعة والتزاويق اللفظية وهذا وحده ما يميزه عن

السابقين ويلحقه بالآخرين من أنداده في ليبيا كأحمد رفيق وأحمد الشارف وقنابة وعبد ربه الغناي والهادي انديشه .

إذ بالرغم من ظهور اتجاهات أدبية حديثة وتيارات نقدية متباينة من العشرينات والثلاثينات جاءت بعد البارودي معاصرة ومواكبة لتلاميذه الكبار في مصر بحكم الصلة التي انعقدت في تلك المرحلة بين عالمنا العربي وأوربا في المجال الفكري وتبناها الجيل الجديد الذي أتصل بثقافة الغرب وأدبه ونهض فيما بعد يزعزع كل شيء على هديها ممَّا يسود في حياتنا الفكرية والإجتماعية والسياسية حتى تناول الأدب وتقاليده ليصحح بدعواته أوضاعه ، أقول بالرغم من تلك التيارات الأدبية والنقدية والتي شكلت بصراعها ظاهرة جديرة بالدرس فإننا لا نحس في الديوان صداها ولا نقف على إنعكاس واضح لها فيه ولا يستطيع أحد أن ينكر الجوانب الإيجابية البناءة التي تولدت عن أشكال النقد الهادف ووجهات النظر التى كانت تستند في نقداتها على زاد حقيقي من التصور إبَّان تلك الفترة .

وقد تبنَّي ذلك الصراع كما هو معروف في تاريخ أدبنا

العربي الحديث جماعات مختلفة كجماعة الديـوان وجماعة أبولـو والمدرسة المهجرية وعصبة الأُمنـاء وجماعات من المثقفين الأُدباء الذين أتيحت لهم فرصة مواصلة التحصيل في أروبا فتأثـــروا بمقاييس أجنبية حاولوا تطبيقها على أدبنا وكلها إتجاهات تدعي النهوض بفن القـــول الأدبي والصعود به ليكون في مستوى آداب الأُمم الراقية ممَّا جعل الكثير منها تهوي بعنف على رؤوس هؤلاء الشعراء الذين ارتفعت راياتهم منذ منتصف القرن التاسع عشر تسفه طرائقهم وترسم لهم مساراً جديـــداً في الشكل والمضمون .

وقد قرأ شاعرنا لأصحاب تلك التيَّارات كما درس الكثير من آثارهم فيما كانوا يصدرونه وينشرونه في مجلاتهـم وكتبهم ودواوينهم إلاَّ أنـ هذا الإطلاع والتتبـع لم يكن ليبلغ بـه - في نظري - حد التأثر والتمثل والمجاراة أو الانخراط التـام في سلك إحدى تلك الإتجاهات وأذكر أني سألته رحمه الله في أُمسية من الأماسي الشيقة التي شهدتها معه في بيـته عن مدى تفاعـــله بدعوات أولئك الأُدباء وأغراضهم النقدية فأجابني دون تردد

بجهله بمعالمها المحدَّدة ـ ومعنى ذلك أنه كان يتصل منها بنصوصها الأدبية المجردة لا بتعاليمها وفلسفاتها التي لم يتبينها من النصوص وهو في اتصاله هذا لا يبيح لنفسه ولملكته حق الترسم والمحاكاة ولعل مرد هذا الأمر عند شاعرنا وشعرائنا الليبيين بعامة الى ناحيتين هامتين، الناحية الأُولى وندلّل عليها بالشاعر أحمد الفقيه نفسه الذي كان عكّافاً على كتب التراث القديم وإتجاه البعث والإحياء في الشعر بما تمثله فحولة البارودي وموسيقى شوقي ووطنية حافظ وطلاوة الجارم ورقة إسماعيل صبري وهذا صرفه فيما نحسب عن نشدان أية وجهة أخرى وخصوصاً أنه لم ير على الأقل من الناقدين الثائرين والشعراء منهم بخاصة من يرقى إلى سماء أولئك في فنه كما يتصوَّر شاعرنا .

وناحية أخرى وهي أن تلك التيّارات سواء فيما صدر عن المدرسة الانجليزية أو المدرسة الفرنسية إذا صحَّ التعبير لم تر في عمومها وفق فلسفة معينة أو خطة محدَّدة واضحة يلتزمها أتباعها بقدر ما عملت في إطارها الإجمالي على التحطيم والهدم الذي وصل في بعضه إلى حدِّ الإسفاف والسخائم وبذا لم تقم عندنا

كما يقول أستاذنا الدكتور بدري طبانـه « مدارس ذات مناهـج أو تعاليم أدبية متكاملة وبعبارة أخرى لم يستطع هـذا العصر أن ينتـج معالم موحدة أو تقاليد متشابهة في أدب مجموعـات من الأُدباء ولم تنعقد الزعامة الحقيقية لأديب ما على جملة من الادباء احتذوا حذوه في شعرهم أو كتابتهم أو بقيت تعاليمـه الفنيـة متسلطة على مذهبهم في الشعر أو في الكتابة أو موجهـة لهم في صناعاتهم الفنية إلاَّ ما قد يبدو من تقليد بعض الناشئين لشيوخ الأَدب المعروفين أو الذين سبقوهم إلى مزاولته وكان لهم حـظ من ذيوع الصيت »[1] وهذا ما جعلنا نشير سلفا إلى أن مفهوم المدرسة فيه الكثير من التجوز .

ومن ذلك نتبين أن شاعرنا لم يتأثر بشيء من تلك التيارات النقدية لجماعة الديوان أو جماعـــة أبولو أو الجماعة المهجرية ، وإن كان قد تأثر كما أومأ البحث بشيـخ من شيـوخ الأَدب

---

(١) التيارات المعاصرة في النقد الادبي ص ٢٥ .

المبرزين الذين سبقـوه وهو البارودي وسار في إتّجاهه مع خلط في بعض الأحايين بينه وبين الوجهة التقليدية .

والظاهر أن السنوات الخصيبة التي عالج فيها الشعر كثيراً كانت مقرونة بجهوده التعليمية والسياسيـة والتنظيميـة ممَّا لم يهيء له فرصة التفرغ لفنه وأدبه والاتصال الدقيق بالروافـد الجديدة التي لا ينكر دور أعلامهـــا في الإتحاف والإثراء . إن إشتغال شاعرنا بأعباء كثيرة تفضفض الحيز ومـا انعكست دون شك على أدبه وأنزلته هذا المنزل المتردد بين الشعر التقليدي واتجاه مدرسة البعث والإحياء وإخاله لو تمثل تلك التيارات التي جمع بعضهـا بين الأصالة التراثيـة والتفتح على الثقافات الأجنبية بنظرة متعمقة وروح متفتحة مرنة لأمكنه أن يضيـف لامحالة الكثير من ألوان الجدة والعمق بالحديث عن الحيـــاة اليومية ومشاهد التجارب والحـديث عن الجمـال والطبيعـة والطابـع الشخصي وبناء عليه فإننا لا نجد عند شاعرنا ـ كأغلب شعرائنا الليبيين ـ عمق النظـرة في الأشياء كما نطالع ذلك عنـد العقاد وعبد الرحمن صدقي ولا أشكال اللذة الصاخبة على نحو ما تقرأه

عند إلياس أبي شبكة ولا التأمـــل الذهني كما يبرز في شعر إيليا أبي ماضي أو التأملات النفسية الدقيقة كما نطالعها عند مخائيل نعيمة لأنها فـيما نحسب صـدى لثقافاتهم الأجنبية التي لم يتعمقها الشاعر وانعكاس لتفرغهم لأدبهم مما أعطاه غنًى خالداً ، والحقيقة أن هذا قصور واضح في أدبنا الليبي وعند شعرائنا جملة أعـانت عليه عوامل كثيرة قعدت بشعرهم في إطار الجمـود والرتابة ممَّا دعا ناقداً أديباً كبيراً هو الأُستاذ خليفة التليسي الذي راقه شعر الآخرين فشن حملة عنيفـة على شعرائنا في أوائـل الخمسينات قصد بها (تمزيق الستار الشفاف الخدَّاع الذي أحاط بالشعـر والشعراء في هذا البلد) [1] عند المقارنة بينه وبين الشعر المزدهر عند غيرنا ولا نشك في أنــ الأُستاذ خليفـة التليسي كما نعتقد ويعتقد هو اليوم قد تجنى على شعرائنا كثيراً لأنه لم يقم في تلـك الحملة حساباً لمعطيات بيئـتنا العاثرة .

أمَّا وقد وصلنا إلى هذا الحد في تحديد إتجاه الشاعر الإنتمائي

---

(١) رحلة عبر الكلمات للتليسي ص ٣٧ .

الأدبي ـ فإننا نرى من الخير لبيان منزلة الأدب والأديب بين منازل أنداده من شعرائنا أن نعرض للحديث عن فنيته بذكر أهم المشابه بينه وبين مدرسته التي ينتمي إليها وقراءة بعض الأبواب من ديوانه لتبين سماتها والحكم عليها ـ ومن المهمّ أيضاً أن نذكّر هنا بدور كل بيئة في الأدب والعوامل الذاتية في كل إنتاج فنّي فالأدب كما هو معروف يمثل مرآة صادقة للحياة العامة التي ينبع فيها يعكسها ويتأثر بصورتها أيًّا كانت هذه الصورة.

وممَّا لا شك فيه، أن أصداء خاصة ترجع إلى طبيعة تكوين كل إقليم من نواحيه الاستراتيجية، والحضارية والصلات المدنية تتقدم بالبعض وتعوق البعض الآخر عن التقدم والنبوغ حتى مع وجود التشابه في الطابع العام في إتجاه أدبي معين ـ فالمدرسة التقليدية الحديثة من أدبنا العربي الحديث مثلًا نراها في مصر تختلف في بعدها الفني عن إتجاه أدبي مماثل في الشام وفي ليبيا والمغرب بنسب متفاوتة ولذا فإني أحب أن أرفق بشعرائنا من أصحاب ذلك الإتجاه وأضع في الإعتبار عند دراستي للناحية الفنية لشاعرنا البيئة المعوقة والظروف السياسية والفكرية

الصعبة التي ظهر فيها أدبـــه . إذ لو لم يكن له ولهم في تلك الفترات القاسية الاَّ مزية العطاء والنتاج الذي حكم عليـه عصرهم بالتأثير لكفاهم فخراً .

لقد درس شاعرنا اللغة والأدب كما بينا درساً ممتازاً ممَّا جعله يتفق مـع البارودي وتلاميذه في الإحتفـال بالشكل كما يواكبهم في المبدإ والغاية التي ينشدون ، وشاعرنا يصوِّر لنا ذلك في قصائد كثيرة يفهمنا بها مذهبه وطرائقه التي تلتقي فى الكثير مع طرائق مدرسته ونحن نستطيع أن نقف على هذا المذهب بيسر من قصائده (إلى بني الضـاد) (الخيـال) (الشاعر) (الشعر) (١) حيث يرى في هذه القصائد وجوب أن يكـــون الشعر مجارياً لشعر القدماء في معناه ومبناه وخياله معبِّراً عن أحاسيس صاحبه وشعوره .

جاريت فيه الأقدمين وإنَّـني ... عبَّرت عن فكري به ومرادي

فهم الأُلى رسموا طريقاً واضحاً ... للشعـر منشوراً مدى الآبـاد

---

(١) الديوان ص ١٧١ ، ١٧٨ ، ٣٧٥ .

كما يجب أن يحفل برفيف أشعارهم وروائع حكمهم وأمثالهم غير مقصر في معالجة القضايا والأحداث التي تشهدها الأمة بعيدا عن الجفاف يعلو به خيال وفيٌّ لأنه

يجود عليك بوصف الجمال ... وما في الطبيعة من زخرف

ويظهر من مبدعات البيان ... ومكنون سر له مختفي

والشاعر الفذ الذي يقدمه شاعرنا ويحترم شعره هو من

هلهل الشعر بالفصيح من اللفظ ... وأضحى به عديم المثال

يجهد الفكر في اختراع المعاني ... ويجلي في صوغها كل غال

وبالرغم من أن هذا التصوُّر يتنافى مع مبدإ جماعته الذي يرى أن يكون الشعر (بريئاً من عشوة التعسف غنيا عن مراجعة الفكرة) إلاَّ أن شاعرنا في الكثير التزم بما اعتقده وأشار إليه كما التزم أيضاً بملامح جماعة البعث والإحياء فجاء ديوانه حافلًا باللفظ الرشيق والمعنى الأنيق ممَّا جعل الدكتورة نعمات أحمد فؤاد تقول في معرض الحديث عن شعره (أمَّا من حيث الاسلوب والرفيف الشعري فقد وفر الشاعر ـ أحمد الفقيه حسن ـ لديوانه

من الفخامة اللفظية ما وفره الأقدمون وهو بهم حفي ولهم مكرم)[1] .

ولذلك فإن شاعرنا يلتقي مع فحول المدرسة التقليدية الحديثة في ليبيا وخارجها في هذه النزعة لا يعمد إلى رطانة أجنبية يقحمها في قصيده ولا يورد كلمات عامية سوقية ولا تحوجه لغته المتمكنة إلى شيء من ذلك فهو يحافظ على اللفظة السهلة الفصيحة المعبّرة التي يخاطب بها الناس - وإن خالف هذا قليلا في بعض الآثار - على خلاف ما اتفق مثلًا للأستاذ رفيق ومحمد إبراهيم الهوني ومصطفى الفيلالي الذين استخدموا شيئا من العامية والألفاظ الأعجمية .

أما من حيث موسيقاه وجرسه فالديوان تغمره الإيقاعية والتفعيلة فهو ملتزم كالمدرسة التقليدية بالروي الواحد والقافية الواحدة حتّى ليصل به التزامه أحيانا إلى درجات يكاد يحسب فيها ناظماً لا شاعراً . وهذا يقف بنا على نظرة الشاعر وموقفه

(١) من مقال لها نشر بجريدة الثورة ١٦ / ٣ / ١٩٦٠ .

من التجديد . فهو حفيٌّ بخليليته إذا جاز التعبير لا يثـور عليها للخروج منها لأنه السمت الذي تقدِّره البيئة التي يعيش فيهـا في التاريـخ الذي تنبىء عليه القصائد وهو مسار أجيال من الشعراء لم يخذلهم الوزن ولم تعقهم القافية في التعبير عن أدق الخوالج والأحاسيس وبذلك نجد الشاعر غـير ملتفت لدعوات التجـديد بل كثيرا ما يقف منها موقف الحـــذر والريبة ، وفي تضاعيف الديوان نقرأ الكثير من زرايتـه بهـؤلاء الدعاة الذين يروِّجـون للشعر المرسل الحر ، من ذلك قوله :

أعجزه الشعر وكـلَّ قلمـه حيث إدَّعى التجديد فيما يزعمه

فجـــاء بالقول الهراء يرقمه ونمَّ بالجهـل عليـــه قلمـه

والشاعر مؤمن بقضيَّة الإلتزام وتسخير الفن للحياة ولكنـه التزام منفتح غير ضيِّق أو محصور في الحماس الوطني والعاطفـة القومية كما يحلو للبعض أن يفهم الإلتزام فقد جـاء ديوانـه مرآة صادقة للبيئة التي عاش فيها ولحياته وللظروف التي عاشتها بلادنا وأمتنـا الإسلاميـة وهـو بذلك شاعـر كأغلب روَّاد مـدرستـه

ذاتي غيري . بل إنه تناول ـ بصورة يـكاد ينفـرد بها عن شعرائنا اللّيبيين ـ أغراضاً كثيرة ومختلفة من فنون الشعر بعضها قديم والآخر جديد حاول خلالها الإبداع ما وسعه الجهد ؛ فأنت تقرأ فيه الشعر السياسي « الوطنيات » والرثاء والتقريض والشعر الإجتماعـي على نحو ما نجده في قصيدتـه « عظة الغنى * وصـوت الفقير » كما تقرأ القصة الشعرية التي حاول فيها أن يجاري شوقيًّا ومطران إلاَّ أنها أتت في معظمها عنده تقريرية تعليمية تنقصها الحِبكة الفنية والأُسلوب التصويري والحوار الحي الطـريف كما تقرأ فيه التشبيب والغزل والفخر والحماس والخواطر العابرة (حتى الهجاء لم يحرم نصيبه وإن كان عفًّا لطيفاً لا يأنـف منه الذوق ولا يأباه الخلق الكريم) (١) .

وبذلك حفل الديوان الذي بين أيدينا كما يقول عالم العراق الشيخ محمد بهجت الأَثري فيه (بفنون من جـزل القول وكـريم

---

(١) من رسالة للدكتور إبراهيم مدكـور كتبها للشاعر بتاريخ ١٤ / ٢ / ١٩٦٧ م .

من النوازع ونبيل العواطف) [1] . فلا اسفاف في المبنى ولا إباحيَّة وابتذال في المعنى إلا ما سنشير لبعضه .

وإذا كان البارودي يخلط أحياناً في القصيدة الواحدة أكثر من غرض كالقدامى لتضمَّ كالمتحف آثاراً قيِّمة بل ونادرة إلا أنَّه لا يجمع بينها رابط يوحدها وينسقها مما يُظهر أحياناً عدم الانسجام بذلك الإزدحام فإن شاعرنا لا يتبعه كثيراً في ذلك وإنما يحاول محاكاة معظم شعراء مدرسته ـ حيث يجعل قصائده غالباً موحدة الغرض يعطي لكلٍّ منها عنوانا خاصاً لا يزحم فيها أغراضا أخرى ـ على أن قصر النفس الذي اتسمت به الكثير من قصائد الديوان والتي أعطت لشعره تلك المزية لا تطَّرد على نسق واحد من القوة والتماسك ممَّا يجعل أجزاءها كالبنية الحية الواحدة ، وهي ظاهرة أخذها النقاد المحدثون على الكثير من تلاميذ البارودي ومردها عند شاعرنا وعندهم كما هو معروف إلى إعتماد

---

(١) من رسالة للشيخ الاثري كتبها للشاعر بتاريخ ١٨ / ١٢ / ١٣٨٧ هـ .

وحدة البيت وجماله المفرد وترك الأخذ بفكرة الوحدة العضوية للقصيدة مما يجعل الكثير من شعرهم مفككاً متخاذلاً في رأي تلك الجماعة الناقدة .

على أن الذي لا يمكن تجاهله في معرض المقارنة والمقابلة بينه وبين مدرسة البعث والإحياء وهو ينزع منزعهم ويسلك سبيلهم في الحديث عما يتحدثون أن ديوان شاعرنا ينذر فيه ـ كشعرائنا الليبيين ـ الوصف لهذا الكتاب المفتوح الذي يجدر بالشاعر أن يحس به في فرحه وترحه ويستنطقه في تجاربه الشعورية كلها ضرورة أن الطبيعة بمجاليها الخصبة حافلة بالمعاني زاخرة بالدّلالات، وقد كان موقف الأُستاذ خليفة التلّيسي على حق حينما خاطب شعراءنا اللّيبيين جميعاً الذين لم تحركهم طبيعة بلادهم فقال مستنكراً مستغربا (لا تقولوا أنَّ أرضنا خالية من المناظر التي تلهم فنحن لا نطلب منكم المعجزات وإنما نطلب منكم أن تصوروا لنا هذه الطبيعة كما صور الشاعر الجاهلي بيئته)[1].

---

(١) رحلة عبر الكلمات للاستاذ التليسي ص ٤٠ .

فالطبيعة الجميلة ومشاهدها الفاتنة غير بادية في الديوان إن لم نقل إنها معدومة باستثناء ما نجده في قصيدة « كيانشانو » وهي وصف بديع لمشاهد طبيعية في إيطاليا وبعض القصائد الأُخرى وهي ظاهرة شاذة تخالف المألوف من أن الشاعر رسام لبيئته وروائعها كما تخالف ما نجده عند فحول المدرسة التقليدية المجددة وخصوصاً عن أستاذ شاعرنا البارودي الذي « كان مفتونا بالطبيعة يرى شعرها لا ينضب منه معين الإلهام ويرى في كل سطر من هذا الشعر آية من آيات الجمال عليه أن يترنَّم بها »[1] وليس البارودي وحده المجلى في هذا اللون الممتاز وإنما نجد شوقيًّا وحافظاً ومطران وغيرهم من أقطاب هذه المدرسة شديدي الإتصال بالمشاهد والمجالي الطبيعية العامرة يستوحونها ويستلهمونها .

فإذا عرجنا بعد ذلك إلى الهيكل الذي هو من مقومات القصيدة وهو كما تقول الأُستاذة نازك الملائكة : « الأُسلوب الذي يختاره الشاعر لعرض الموضوع »[2] نجد أن حظَّ شاعرنا مقسم

(١) في الادب الحديث للاستاذ عمر الدسوقي ص ١٩٧ جـ ١ .
(٢) قضايا الشعر المعاصر ص ٢٠٢ وما بعدها وفيه تفصيل لاشكال الهياكل .

بين الهيكلين المسطح والهرمي بحسب تعبير هذه الاستاذة . الهيكل المسطح وتدور قصائده « حول موضوعات ساكنة مجرّدة من الزمن وينظر إليها الشاعر في لحظة معينة ويصف مظهرها الخارجي في تلك اللحظة وما يتركه من أثر في نفسه » . ويمكننا أن ندلّل على ذلك من ديوان شاعرنا بقصائده « المجمرة » « مرشة عطر » « الأهرام » .

أمّا الهيكل الهرمي فإنّ « نقطة الإرتكاز فيه لا بد أن تتضمن « فعلًا » أو حادثة لا مجرد شيء جامد يحتل حيزاً من المكان ثم تتطوّر الأحداث وتتشكّل إلى أن تندفع خلالها المشاعر إلى قمة شعورية « قمة الهرم » وقد لا نتبيّن هذا الهيكل بسهولة في شعر شاعرنا إذ نظرنا بدقة التحديد السابق ، وعدم الوفاء به ليس عيباً يقرر لديوانه وحده وإنما يومىء النقاد به إلى مدرسة البعث والإحياء جملة .

ونجد شاعرنا مع ذلك قليل النصيب من الهيكل الذهني الذي يقوم على الأفكار المجردة ونقاشها وسبر غورها غير آخذ

باسباب التعمق في التأملات النفسية ويبدو أن الشّاعر لا يملك عدته ولم تتوفر لديه أدواتـه كرفيق وقنابة والشارف وغيرهم أو أنه كان يملكها ولكنه لم يكلف نفسه كثيراً في معالجته والصبر عليه ولو فعل لأعطى لشعره عمقاً وبعدا ممتازين .

وبتلك المشابه « الإيجابية والسلبية » تكونت صبغة الديوان وصورته وهي صبغة وصورة قرّبتاه من أشكال المدرسة التقليدية المجددة دون شك وجعلتاه يحتـل مكانـة لا تنكر بين شعرائنا في ليبيا بحيث لا يذكـر الأدب الحـديث فيها إلا ويذكــــر معها شاعرنا كممثّل لمرحلة معينة منه .

قراءة لبعض أبواب الديوان

ضمّ الديوان أبواباً متعددة وألوانا من فنون الشعر مختلفـة لأنه حصيلة نصف قــــرن تقريباً من عطاء الشاعر الفني ومن تجاربه الشعورية فـيما يتّصل بذاته ويتعلّق بإحداث أمّتـه ، وفي هذا الفصل نحـاول أن نستقرىء ونتفهـم طبيعة بعض الأبواب

من الديوان لنذلل بطريقة تطبيقية على بعض النقدات النظرية التي أومأنا إليها .

المدائــــح النبويـــــة [1]

إن أوَّل مايطالعه القـراء من ديوان شاعرنا أحمـد الفقيه حسن باب المدائح النبوية الذي يحتوي على خمس عشرة قصيدة وتشطير واحـد ويبلـغ مجمـوع أبياته زهـاء (٤١١) بـيـتا . والمدائح النبوية كما يقول الدكتور زكي مبارك « لون من التعبير عن العواطف الدينية وباب من الأدب الرفيع لأنَّها لا تصدر إلاَّ عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص » [2] .

وقد عرف الأدب العربي في ليبيا هذا اللـون طيلة عصوره

---

(١) نشر بتصـرف في جريـدة الاسبـوع الثقـافي بتاريـخ ١٧/٨/ ١٩٧٣ عدد (٦٢) .

(٢) المدائح النبوية ص ١٧ .

وَطرَقه شعراؤنـا مادحـين متوسّلين لما يكابدونـه من الشوق والحنين للذات النبوية الطاهرة .

ولعلّ اختيار شاعرنا في تقديم هذا الباب على بقية الأبواب والأغراض وفي هذا العدد الضخم من القصائد والأبيـات التي برز بها مديحه للرّسول العظيم ما يشير إلى ذلك كما يبرهن بصدق على مدى إرتباطه بجده المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا غرابة في ذلك لأنّ شاعرنا نشأ في بيـئـة ليبية زاخرة بالمعاني والمشاعر الدينية ودرج كما قدّمنا في بيـت تنتمي أرومتـه إلى الشجرة الزّكية المباركة .

والمعروف عن هذا اللـون الأدبي أنه ازدهـر منذ القـدم في تراثنا الشعري وبلـغ مستوى عظيماً في شكله ومضمونه وبقـي على ذلك إلى أن ألقى عصا التسيار بعد رحلة طويلة عبر الزمن في واحة المدرسة التقليدية الحديثة التي حافظت على أصـوله وأمدته بالطارف الممتع .

وشاعرنا أحمد الفقيه حسن ـ وهو شجرة وارفة مثمرة من

تلك الواحة ـ حافظ مستوعب لهذا الفن يروي كما عهدته عيون قصائده ويتطارح بطرائف نوادره وروائع فرائده وقد ناقذته في هذا اللون فرأيته يعتز به لشرفه ويروي فيه للبوصيري وكعب ابن زهير والكميت بن زيد والبارودي وشوقي وغيرهم من المشاهير عدداً من المدائح القوية غير قليل .

لذلك فالمعنى الذي ننشده من هذا الحفيد الشاعر ـ في زمن ازدهر فيه هذا الفن ـ أن يطالعنا في مدائحه بنجوم ساطعة ودرر باهرة في الشكل والمضمون إذ عنده كما تبيَّن من الأدوات والبواعث المتعدِّدة ما يرقى به إلى ذلك النبوغ المنشود .

إنَّنا ننشد في هذا المقام أن يكون الشعر قويًّا في معناه ومبناه متسِّماً بالطرافة مؤثِّراً في النفس بصوره الشعرية أو بمعنى آخر لا نريد أن يكون هذا المديح مجرَّد ثناء تحتشد فيه الأوصاف والشمائل والصلوات وتصوغه التقريرية التي تغيب معها الصورة الشعرية الفنية بخيالها المحلق وجرسها العذب كما نطالع ذلك في شعر المدرسة التقليدية .

في الحق أن شاعرنا كان صادقاً في استقبالـه لاعيـــاد ميلاد سيد الكونين (صلى الله عليه وسلم) حفيًّا بقدوم كل ذكرى من ذكريات أمجاده لأنه يعتبر ذلك واجباً حري بالفضـلاء الأتقياء القيام به وهو مظهر من مظاهر الإيمان والإسلام عنده .

وبهذه النظرة نجـده يفوق بعـدد قصائده شعراءنـا الليبيين جملة ماعدا المتصوفين منهم أمثـــال الشيـخ البهلول والضاوي وزغوان الذين انصرفوا بفنّهم إلى هـــذا اللون فأكثروا فيه ، إذ الناظر في دواوين المهدوي وقنابـة والشارف والأسطـى والهوني يجد أن نسبة المدائح النبويَّـــة ضئيلة وقليلة بالقياس لشعر شاعرنا فيها .

ونحن في تقييمنا لهذا الباب لا ننشد بالبداهة مجرد الكمّ فقط ـ وإن كان يهمنا هو الآخر في الحكم ـ وإنما نطلب غـرضاً كيفياً آخر هو المعوَّل عليه في الموازنات والتقييم .

والذي ينعم النظر في قصيـد شاعرنا في هـــذا اللون يراه كأغلب شعراء هذا الإتجاه لا يسير ضمن خط فني محدّد ولا يلتزم

في مديحه فلسفة معينة وإنما يخضع لإملاء الخاطر الذي خانه معه الوفاء للمبنى « الإيقاع الخارجي » كما جعل الوحدة العضوية تتضاءل في الكثير من مدائحه وإن وفّى بقدر للمعنى بتحيّة كل ذكرى وهذا هو المظهر الكلي الذي نعود به كما سنوضح من قراءتنا لهذا الباب .

فالناحية الفنية في هذه الآثار إذا جُرّدت من الديوان ـ جدلاً ـ لا تدلّ وحدها على قريحة مرنة طيّعة تلتزم إظهار الصورة بتوخي الألفاظ الموحية والأخيلة البارعة على نحو ما نرى في الكثير من المدائح النبويّة عند جماعة البعث والإحياء التي يتبعها الشاعر . وهي ظاهرة لا تقرر في شعر شاعرنا وحده وإنما تشيع بكل أسف في أدب المدائح عند الكثير من شعرائنا كأستاذنا قنابة الذي ليس له في هذا اللون إلاّ قصيدة واحدة والشيخ الضاوي الذي إتّسم شعره بالبساطة والشيخ محمد زغوان الذي تأثّر بشيخه الضاوي وأيضاً رفيق المهدوي الذي أسّس هو الآخر جملة من مديحه على (بحر عاد ليس له تأثيره الموسيقي) [1] .

---

(١) رفيق في الميزان للاستاذ عبد ربه الغناي ص ١٩٥ .

فشاعرنا في بابه هذا رغم صدقه الذي ذكرنا وتخلصه غالباً من الإستهلال الغزلي الذي (لا يتفق أصلًا مع حسن المشاكلة وائتلاف النسق مع المدائح النبوية) [1] يحافظ كما توحي قصائده على رتابة معادة وطابع تقريري ينبىء بالتعمُّل والتكلف وكأنَّه بمذهبه هذا أراد مجرَّد التذكير بالمناسبات الدينية وربط الناس بمفاخرها في وسط حارب فيه المستعمر الحاقد الدينَ وعمد بأساليبه إلى سياسة التنصير أو أنه أراد أن يشبع بهذا الاستقبال المتكرر المعاد حاجة ذوق جماهيري كان يطرب في تلك السنوات للموزون المقفَّى ويغفل غيرهما ممَّا هو من مقوِّمات الشعر وعناصره .

فتراه في تلك الآثار يحافظ على المعنى الذي هو صحيح من الناحية الواقعية والتاريخية بذكر ظهور النور المحمَّدي وما أحدثه في ظلمة العرب من ضياء ويعد صفات الرسول

---

(١) الدين والاخلاق في شعر شوقي للاستاذ علي النجدي ناصف ص ١٤٧ .

صلى الله عليه وسلم وشمائلـه ويشير إلى الإرهاصات التي سبقت ميلاده ـ عليه السلام ـ كتصدع إيوان كسرى وخبوّ نار فارس ونضوب بحيرة ساوة وتلألؤ قصور بصرى وغيرها من المظاهـر التي لا تخفى حتى على البسطاء من قرّاء مبادىء السيرة وإمـلاء البرزنجي . اقرأ معي قصيدته في ذكرى المولد النبوي الشريف [١] والتي يقول فيها :

أدر على السمع ما حققت من خبر	في يوم ميـلاد طه سيد البشر
وانظم من القول ما قد كان منتشراً	على الآنام بريا ذكـره العطر
محمد سيد الخلق الـذي سعـدت	به البرية بعد البؤس والكدر
جاء الآنام فكان الغيث عن ظمـإ	فعم بالفضل أهل البـدو والحضر
واختصه الله بالقـربى فـأرسله	للخلق طراً بشرع ناصع الاثر
شرع به قام هدى الله وانتظمت	دنيا الوجود به في أبـدع الصور
الله أوحى إلى المختار حين دعـا	بـه فـأيّـده بـالآي والسور
خير الورى أحمد الداعي لنهج هدى	ومنقذ الخلق في البأساء والخطـر
هو النبي الذي لـولاه ما عرفت	حقيقة الكون في الدنيا لمفتكر

---

(١) الديوان ص ٦ .

هدى به الله قوماً كان رائدهـم إلى الضلالة لا ينفك في غـرر
في يوم مولده الميمون قد ظهرت آيات بعثته كالانجم الزهر
إيوان كسرى تداعى خاشعاًوخبت من فارس نارها عن موقد الشرر
وساوة غار ما تحـوي بحيرتهـا من الميـاه التي من قبـل لم تغر
وقد تحطمت الاصنام وانكشفت عن كل منتكس منهـا ومنكسر
فكان ذلك ارهاصاً لبعثـة من أتى بدين من الرحمن مزدهـر
إن العروبة قد نالت به شرفـاً مخلداً بمداد الفخـر في السير
لولاه ما أشرقت يومـاً مواهبهـا على الشعوب بدين منـه منتصـر
صلى الإله عليه كلما انبعثت من دينه السمح آيات لمدّكر
وآله الغر والاصحاب من وقفوا صفًّا لنصرة هذا الديـن في نفـر

تلك قصيدة من قصائده تبين بملامحها عمّا ذكرناه من الأحكام في هذا الباب وهي تنوب في إعطاء الصورة له لأن شاعرنا يعيد إليك تلك الأفكار والمعـاني مع كل قصيدة دون أن يتحـف بطريف .

وليست مهمـة الشعر الـذي يقوم على التأثـر والتأثـير أن يحشد المعاني المكرورة ويظاهر الأفكار فيه دون أن يلبس ذلك أثواباً برّاقة ماتعة . لأنه إذا جاز ذلك للشّعر التعليمي (النظم)

فلا يصحُّ بجال لشعر يقوم على العواطف والشعور والتطريب، ومع ذلك المنحى الغريب الذي طبع هذا الباب بهذا الطابع لا نجد شاعرنا ينزع كما ينزع المادحون من أعلام مدرسته الذين أظهروا مدائحهم في أثواب قشيبة من الحنين والشوق للذّات الطاهرة وأثر الدين بشموله في الحياة أو التصوير الرائع لحالة نفسية تحمل على القول في ذلك . وهي إن بدت فإنما تبدو خفية فاترة إذ أن دأبه وديدنه أن يشير في كل قصيدة إلى الإرهاصات والشمائل وإذا تخلَّص من ذلك فإنما يتخلَّص إلى معنى بعيد من الفخر والوطنية ليعرج في النهاية غالباً وبصورة تكاد تكون هي الأُخرى معادة بألفاظها على الدعاء والتضرع الذي يبدو وكأنه تكرار :

صلى عليه الله ما هب الصبا	وترنمت بغنائها الورقاء
وعلى الكرام الآل والصحب الأُلى	قد كان منهم للنبي وفاء (١)

أو قوله في قصيدة أخرى :

صلى عليه الله ما هب الصبا	وتبسَّم الصبح المنير وأشرقا
وعلى الكرام الآل والصحب الأُلى	أبقوا لنا الذكر الجميل منمقا (٢)

(١) الديوان ص ٤ .
(٢) » ص ١٠ .

وغير هذين من الخواتيم المتشابهة كثير كما يلاحظ القارىء في هذا الباب ممَّا تضعف معه الصفة الفنية الإبداعية التي ترقى بصاحبها وشعره إلى مصاف الآثار الخالدة .

على أن الذَّوق الأدبي بمحدوديته في الأربعينات وأوائل الخمسينات التي قيلت فيها هذه القصائد وعدم نضجه الأدبي وسير تلك الآثار دون حركة نقدية مبصرة مواكبة أعانت على هذا الضعف في شعرنا بصفة عامة وهذا ما يمكننا أن نبرِّر به هذا القصور في باب المدائح وفي كل باب من شعرنا الليبي في تلك الفترات .

وليس معنى ذلك أن شاعرنا في بابه هذا لا ينهض على قدم ولا تذكر له شاعرية البتة ـ فقريحته وإن خمدت جذوتها كثيراً هنا إلاَّ أنَّها مع ذلك تفوق في مجال المقارنة الكثير من قرائح شعرائنا الآخرين ، إنَّما نقصد أنه أوحى لنفسه غالباً في تلك النصوص أن يكون ناظماً لا شاعراً ووزاناً لا فناناً وإن كانت قريحته المرنة تلوح بين الفينة والأُخرى من خلال نظمه

حيث نجدها في ثنايا القصائد شذرات بديعة وخطرات لمّاعة في الاستخدامات البلاغية التي تبدو واضحة في قصيدة (ذكرى المولد النبوي الشريف) وفي غيرها ونحن نمثل لتلك الشذرات والخطرات بما جاء في معرض التوسل في قوله :

الدهر أصبح من ألدّ خصومي   والقلب ضاق عن احتمال همومي
والنفس من صرف الزمان وأهله   كادت تفيض بحزنها المكظوم

إلى أن يقول في الرسول صلى الله عليه وسلم :

عين الكمال محمد المبعو   ث للعرب الكرام جميعها والروم
سعدت بمولده البرية واحتفت   بقدومه إذ كان خير قدوم

وجاء في قصيدة أخرى :

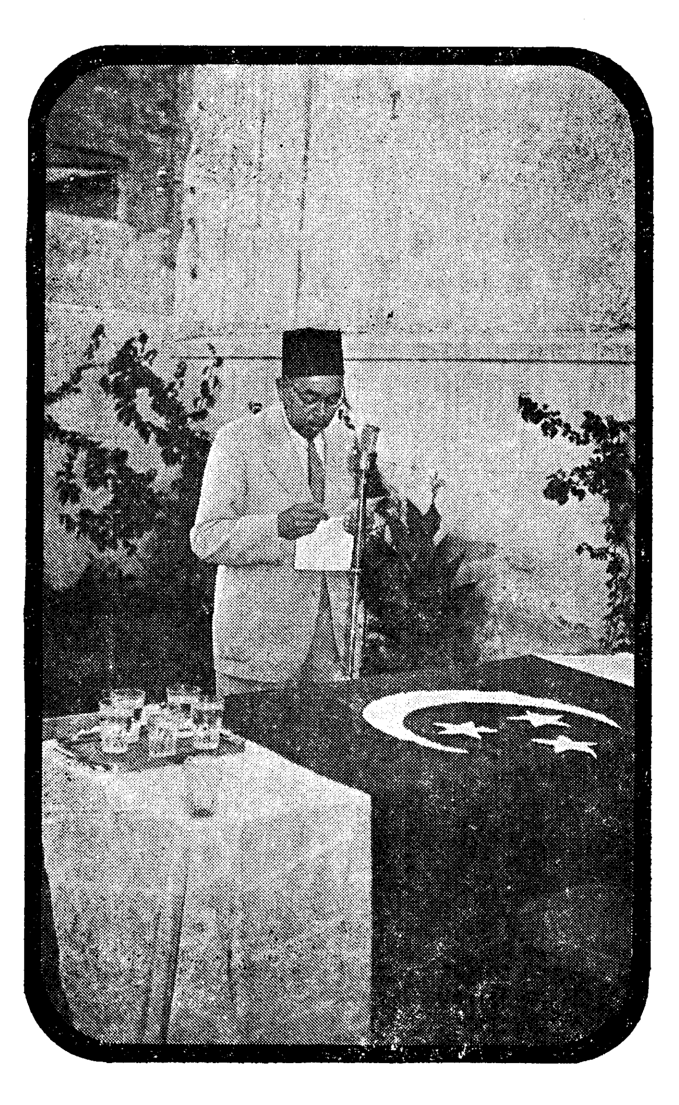
ودنت إلى الارض النجوم من السما   شوقا لرؤية أحمد وتعلقا
ملكوا به شرق البلاد وغربها   ولغزوها سبقوا الجياد السبقا

ومن الومضات الرائعة في هذا الباب قوله :

يوم به ولد النبي   الهاشمي المجتبى
ذكراه خالدة مدى   الايام ساطعة الضيا
طه نبي الله أحمد من به محي الشقا

جاء الورى بشريعـة	غراء واضحة السنا
نسخت بها كل الشرا	ئع واستقت منها النهى
كالشمس واضحة غدت	للعين ترشد من غوى
وهي التي سادوا بها	كل الشعوب بلا مـرا

وهذه التي قدمناها شواهد كما لا يخفى للتمثيل لا للحصر ولا نزعم أنها وحدها تقوم دليلا على تلك الشذرات والومضات ، فالمستقرىء لا يعدم فى هذا الباب مزيداً لكن الذي أذهب إليه من قراءتي لهذا الباب أن مثل تلك اللمحات العجيبة قليلة بالقياس لأبيات هذا الباب الذي شاع فيه النظم ممّا أغرقها في كثبان التكلف ولسنا ندري مع ذلك كله كيف ألمّ بالديوان هذا الروح وكيف كان الأستاذ الذوّاقة يقنع نفسه في كل ذكرى بدوران المعـــاني والألفاظ بنفسها دون أن يحس من ذلك بثقل الحديث المعاد .



الشاعر ينشد قصيدته في احتفال النادي المصري

بعيد الجلاء يوم ١٨ / ٦ / ١٩٥٦

وطنيات

إذا كان الأدباء والنقاد قد خفت أريحيتهم فاطلقوا على شاعر وطني مبدع مخلص كالأستاذ أحمد رفيق المهدوي صفة شاعر الوطن والوطنية لقصيده الذائع الذي كان يتغنى به رحمه الله في آفاق الإنطلاق ويرسله في غيبة الملاحقة الاستعمارية ويبعثه حرًّا من وراء السدود والقيود فحريٌّ بهم وبالأيام اليوم أن ينعموا النظر في أعمالنا الأدبية ويلتفتوا بتجرد إلى شعرٍ وطنيٍّ عملت الظروف الحالكة على محاربته وطمسه ليوجدوا له ولقائله الذي عرك الضيم والسنين العجاف وذاق ظلام السجون من أجل هذا الوطن صفة أكثر دلالة على المعاناة والمكابدة في سبيل هذا الوطن وهم حين يفعلون هذا مع شاعرنا أحمد الفقيه حسن لا يمنون عليه بشيء ولا يتفضلون على كفاحه وأدبه بتقدير لا يستحقه وإنَّما يحسنون لأنفسهم ويخدمون تاريخنا الفكري والأدبي بما يثبتون من حق .

فالذي لا يماري فيه أحد أن شاعرنا كان كما ذكرنا مثالاً رائعاً في وطنيته شديد الحب لامته وقد عبر عن أحاسيسه الوطنية والقومية بأعمال حركية كالنادي الأدبي والحزب الوطني والمشاركة في أعمال حزب الكتلة الوطنية. وبقصائد مدوية تناقلتها الألسن وحفظتها النابتة إبّان الأيام العصيبة وهي وطنية ثابتة متفتحة ، ثابتة لا تقبل المساومة والتنازل والخضوع للمستعمر وجامعة لأنها تختلط فيها بعمق المعاني الدينية بالمعاني القومية والخلافة العثمانية مقرونة بآمال العروبة والجامعة الإسلامية وهذا المفهوم كما يقرر الدكتور محمد محمد حسين في كتابه الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر كان سائداً قبل الحرب العالمية الأولى لا يفرق فيه الناس بين العروبة والإسلام . فشاعرنا بذلك يسير ضمن تيار عام لا يختلف فيه مع شعراء المدرسة التقليدية الحديثة الذين أبرزوا وطنياتهم على ذلك المنوال ومن الأهمية بمكان أن نذكر بأن شاعرنا سار على هذا الطريق حتى بعد الحرب العالمية الأولى ممّا أعطى للديوان مدداً زاخراً عدّه به الدكتور محمد الصادق عفيفي من الشعراء الليبيين البارزين في الشعر الوطني

كما اعتبره الأستاذ أحمد قبش شاعراً بارزاً ضمن شعراء الصراع والنضال في العالم العربي [1].

وهذه الفعالية والممارسة الوطنية بدأت منذ فترة مبكرة كما يوحي لنا تاريخ القصائد وقد جاءت حافلة بالمعاني القومية مليئة بالنخوة والحمية والعواطف الصادقة فخورة بجهاد الأبطال في ليبيا والبلاد الإسلامية على أروع ما يأتي الفخر والتأييد . وشاعرنا يحافظ في هذا الباب على الرفيف الشعري محاولاً الإبداع كشعرائنا وشعراء البعث والإحياء عامة وبذا جاءت قصائده مزهوة بطلاوتها متسمة بملاحتها وبما يشيعه فيها من ضروب البيان والبديع وما يبثه من شكوى من حكم اللئام والحنين للوطن والتذكير بتاريخنا الحافل ليشب النشء الجديد من خلال هذه الخلال .

لقد فرضت طبيعة المرحلة قبل إندلاع الحربين الكونيتين

---

(١) راجع الاتجاهات الوطنية لعفيفي ص ٣٩٢ وتاريخ الشعر العربي الحديث ص ١٤٣ .

وبعدهما الكثير من تلك المواضيع والتصورات على شعر تلك المرحلة وشعرائها ، وما كان لشاعرنا وهو الأديب المناضل أن يغض الطرف عنها أو يلزم الصمت إزاءها وقد كان واقعيًّا في تصويره للأحداث إلى أبعد الحدود يرسم للجماهير القضايا بريشة لا تحركها العاطفة الهوجاء ولا تتحكم فيها الانفعالية الجوفاء ، فالصراع مع المستعمرين والاستعمار كما يصوره الديوان ـ نضال موصول وحقد مقدس قدر على هذا الجيل ـ وقد صور شاعرنا ذلك في قصائد وأناشيد :

طرابلس هي الوطن المفدى ولاستقلالها أمتشق الحسام
دفاعاً عن كرامتها بذلنا دماء دونها الابطال خاموا
وقد شهدت بنو الطليان أنا لنيل المجد طاب لنا الحمام
إلى الحرية الحمراء نسعى ولا يثني عزيمتنا اصطدام

ويقول شاعرنا سنة ١٩٣٥ بلسان الواقعية متغنياً بوطنه :

وطني أراك عن النجاح بعيدا إن لم تجد من شعبك التأييدا
قد عقك الابناء لما ضيعوا حقاً غدا دون الحقوق فقيدا
تركوا محبتك التي هي واجب لا يستطيع الحر عنه محيدا
وطني بحبك لا أزال متيّماً وأرى العقيدة فيك والتوحيدا

ومن أناشيده العذبة التي نظمها سنة ١٩٤٣ :

بني وطني يا سراة الزمن ... وأسد الشرى في اضطراب المحن
نعيش ونحيا لنفع الوطن ... هلموا وسيروا بهذا السنن
بلاد غدت خير أم لنا ... ولدنا بها وعرفنا الوجود
وكانت لآبائنا موطنا ... عزيزاً يجدد فينا العهود

وشاعرنا لا يقصر هذا الباب على ما قاله متعلقا بوطنه الطرابلسي وبجهاد شعبه الليبي ولم يحصره في الإشادة بالمجاهدين الليبيين الأبطال بل جعله ساحة يكبر فيها جهاد المسلمين وكفاحهم ضد الاستعمار ممثلًا بذلك إمتداداً لدعوة الجامعة الإسلامية التي بعثت في ذلك التاريخ وخلد تركيا والدولة العثمانية في شعره ومدح مصطفى كمال قبل مروقه وبارك جهاد الجزائر ورباط أبطالها في اليعاليل وأكبر أرض الكنانة لإجلائها الأجناد الأنجليز كما أنه لم ينس قضية فلسطين السليبة ودعوة المخلصين لتحريرها وشاعرنا كما تفرحه انتصارات أمته تسره أيضاً كبوات أعدائها وتخاذلهم فهو يحتفي بصرع الطاغية موسوليني :

كان القصاص من الإله جزاء فأصابه لما طغى استعلاء
طويت بميلانو صحيفة بغيه وبها يموت الميتة الشنعاء

وتهزه النشوة عند جلاء الحلفاء عن إسطمبول فيقول :

اليوم حق لنا الفخار على الملا إذ حكم دولتنا العلية قد علا
قهرت أعاديها بأسد قد رأوا أن الغليل شفاؤه ماء الطلى

ومن القصائد الوطنية الممتازة في هذا الباب التي تشير إلى التعلق بالوطن والدولة العثمانية قصيدة « ذكرى » التي قالها إبّان سطوة الحكم الفاشي متذكّراً العهد العثماني الذي كان الشعب الطرابلسي يتمتع فيه بكامل حقوقه ، ونوردها هنا لطرافتها ولنصحح خلطاً وقع فيه الأُستاذ الصيد أبو ديب إذ نسبها لاستاذنا قنابة رحمه الله ، يقول أحمد الفقيه حسن :

وقفت بالساحة الكبرى وقد جمعت شتى أناس زرافات ووحدانا
رأيت معرض أقوام قد أختلفت دينا وعقلاً وأشكالاً وألوانا
قد خلدت عبراً في النفس رؤيتها وجددت في الفؤاد اليوم أشجانا
مناظر حيرت عقلي وقد بعثت ذكرى الألى بلغوا بالجد سلطانا
مناظر برهنت للناس أن لها سراً خفياً طواه الدهر أزمانا
هناك أدركت ما أدركت من عبر وقمت أنشد إخوانا وخلانا

أين الألى أنست نفسي بعشرتهم وكنت ألقى بهم للفضل عنوانا
قوم بفضلهم ازدانت طرابلس وقايضوا أهلها براً وإحسانا
بثوا العلوم التي أحيت طرابلساً وهذبوا الشعب حتى صار إنسانا ؟!

وباب الوطنيات يظهره لنا شاعراً قوي الأمل في الجامعة العربية لأنه يرى فيها مشرق أمل ومهتف رجاء . ويلاحظ القارىء للديوان أن الوطنيات تتداخل مع المدائح النبوية والمراثي بل ومع باب الحنين والتشبيب وغير ذلك من الأبواب ممَّا يدل على أن حماسه الوطني المتأجج شعلة تضيء بنورها في كل ما يحاول .

نخلص من هذا العرض أن باب الوطنيات أبرز لنا شاعرنا رجلًا صادق الولاء لوطنيته الجامعة المتفتحة وشاعراً صاحب موقف أضاف بتجاريبه وخبرته لوحات فنية وأدبية إلى أدبنا الليبي بل وإلى المدرسة التقليدية المجدّدة .

الرثاء والمديح

وهما فنان متداخلان ليس بينهما كما يقول ابن رشيق في كتابه العمدة (فرق إلاَّ أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت)[1] وذلك لما يراد بهما من تخليد الممدوح والمرثي والإشادة بفضائله بين الناس حتى يدرك قدره وتظهر مزيته ويعرف هوى الشاعر فيه .

[أ] ففي باب الرثاء وهو الفن الذي (يعبر به الشاعر عن عاطفة نحو ميت فيبكيه ويعدد مزاياه ويتأمل في الحياة والموت)[2] تبدو لنا روح الشاعر الوفية الرضية محلقة بالحفاظ النادر للود لاولئك الراحلين ذاكرة محاسنهم معدّدة محامدهم مستعيدة في عبارات راجفة واجفة ذكريات الأيام الخوالي ؛ اقرأ قوله وهو يرثي أمير الشعراء أحمد شوقي :

---

(١) العمدة ص ١٤٧ جـ ٢ .

(٢) في الادب وفنونه للاستاذ علي بوملحم ص ٨٢ .

دُهي القريض ومات رب لـوائه | واندك صرح الشعر بعد بنائه
وجرى قضاء الله فينـا بالذي | يبغي وكل الخلق تحت قضائـه
صعقت بنو الآداب لما أن قضى | وأصيب شخص الشعر في حوبائه
هو ذلك الخنديد فحل زمانـه | ومن انضوى الشعراء تحت لوائه
فهـو الـذي بلسانـه وبيانـه | رفع القريض إلى ذرى عليائه
يا شرق أد حقوق شاعرك الذي | أولاك قبل اليـوم حسن وفـائه

لقد تظاهرت المعاني والألفاظ في باب الرثـاء بمستوى نفيس حشد فيه الشاعر إمكانياته التعبيريـة حتى وصـل بالكثـير من قصائده إلى المستوى الذي نقرأه عند المبرزين من فحول الشعراء فالألفاظ مختارة تناسب الأسى والمعاني متفقة قوية حتى ليصدق على مجموع الباب في رأيي ما عرف بـــه ابن رشيق سبيل الرثاء بكونه (ظـاهر التفجع بين الحسرة مخلوطاً بالتلهـف والأسف والاستعظام) [1] .

والشاعر كما يصوره الباب هادي الطبـع رزين في عواطفـه

---

(١) العمدة ص ١٤٧ جـ ٢ .

عند صدمة الموت غير صخّاب ولا ندّاب عند حلول المصيبة فالعين تدمع والقلب يحزن ولا يقول إلاَّ ما يرضي الرب :

تستوي الاعمار إن حم القضا ودنا الحتف ليوم منتظر
فقصير العمر ما بين الورى كطويل العمر في هذي الحفر
تحسب الايام من أعمارنا وهي في مشيتها لمح البصر
عبر في هذه الدار ترى وقليل في الورى من يعتبر

ومراثي الديوان لا تتعدى هذا التقسيم :

١ ـ مراث قيلت في آل بيته وعشيرته الصفحات [١٢١ ـ ١٣٢ ـ ١٣٧ ـ ١٤٠]

٢ ـ ما رثى به الأَشياخ الذين تتلمذ عليهم أو الأَعيان الذين أعجب بهم أمثال الشيخ عبد الرحمن البوصيري وإبراهيم باكير وعلي شلابي وأحمد الشارف .

٣ ـ مراث صاغها في أعلام بكاهم من البلاد العربية اشتهروا في الأَدب أو السياسة كالقصائد التي تبكي أمير الشعراء شوقياً وحافظ إبراهيم وياسين الهاشمي والدكتور أحمد عبد الحي كيره .

وقد بلغت بعض القصائد في الأسى والتفجع ونقل المشاعر الشاجية مبلغ التعبير عن عاطفة الشاعر المكلومة وإن كان هذا المظهر يقل في البعض الآخر إذ تغلب عليه نبرة المجاملة والمدح والفخر حتى لتحس معها بالصنعة وأنك في مقام تكلف تتضاءل معه الصورة الشعرية بظهور التقريرية - إلى حدّ ما - التي ينعدم معها عنصر الخيال المركب الذهني الذي يقف متأمّلا أمام ظاهرة شغلت العقول هي ظاهرة الموت .

[ب] أمّا المديح فهو شعر غنائي يشيد بالمحاسن الإيجابية عند الممدوح ولا ضير كما يقول الأستاذ الكبير عباس العقاد رحمه الله على أعظم الشعراء (أن يصوغ القصيد في مدح عظيم يعجب به ويؤمن بمناقبه ولا ضير على الأدب أن يشتمل على باب المديح بين أبوابه الكثيرة التي يعرفها الغربيون والشرقيون) وقد عرفت مدرسة الإحياء والبعث هذا اللون ولا يكاد ديوان من دواوين شعرائها يخلو من هذا الفن الذي تقوم مقوماته على أن يكون أسلوبه جزلاً وألفاظه نقية واضحة وقصائده متوسطة

الطول حتى لا يسأم الممدوح وأن يرتقي بظلاله الفنية حتى يخاطب هذا الممدوح من قريب دون تعمل وبهر كأنه على ما بينهما صديق حميم .

والمديح عند شاعرنا متداخل مع التقريض فقد جعله ـ وهو السري الوفي ـ عنواناً لحبه وأريحيته وصورة لوده وعلائقه مترفعاً بفنه عن التكسب .

وأنا الذي لم أهد علق مدائحي	إلا لكل مجاهد منجاد
لم أنظم الشعر البليغ لغاية	مذمومة لتطلب الارفاد
لكنني أشدو به مستروحاً	أو داعيا لحقيقة ورشاد

والحق أن غلبة المجاملات جعلته يعنى بالأفكار دون الألفاظ فجاء الكثير من شعره في هذا الباب فاتراً غير قوي ، مواضيعه مناسبات عادية هي أشبه بالمناسبات التي قال فيها شعراء الإتجاه التقليدي العقيم وتعبيراته قريبة بسيطة لا تخرج في أغلبها عن تعبيراتهم ووقفة متأنية متأملة على هذا الباب في الديوان تثبت لك دون عناء القصور والنثرية في تلك الآثار .

حنين وتشبيب

لم يخض شاعرنا عباب تجربة غرامية في حياته ولم يتخذ على كثرة شعره في النسيب والتشبيب حبيبة يبادلها وتبادله الهوى في صدق وحرارة وإنّما هذه الكثرة الكاثـرة من قصيده الممتاز في الغزل لا تعدو الوصف الخارجي للجمال ومحاسن الغيد والإعجاب الوقتي بالفتون الأخاذ فهو أشبه بمحمود سامي البارودي الذي تحدث عن المرأة والخمر حديث تقليد ومحاكاة .

وشاعرنا فيما يعالجه من تشبيب عف نظيف تروقه الصورة الباهرة فيصفهـا ويتمناها بشعر رقيـق حـالم يترسم فيه خطى الشعرالعربي القديم بأوصافه وأخيلته بل وبالفاظه ، وإذا كان (حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رسلها قريب المعاني سهلها غير كز ولا غامض وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى لين الإيثار رطب المكسر شفّـاف الجوهر يطرب الحزين ويستخف الرصين [1] فإن شاعرنـا يصوغ في هذا المقـام آثاراً

---

(١) العمدة ص ١١٦ جـ ٢ .

غزلية قيِّمة تتسق مع ما ذهب إليه ابن رشيق من خلال اللفظ الموحي والكلمة الرقيقة الواصفة والخيال البديع المجنح وإن كان تنقصه في الكثير حرارة العاطفة ضرورة أنه لا يمثِّل حبًّا حقيقيًّا بالرغم ممَّا يحاول شاعرنا إضفاءه عليه من أوصاف توهم القارىء أنه دنف وَالِه أو أنه عميد معمود بلغ به الحب مبلغاً .

يا أيها الظبي هل للوصل من سبب	فإنني بهواك اليوم معمود
عيناك قد وخزت قلبي سهامهما	ولا يطيق احتمال الوخز مفؤود
أهوى الجمال الذي أصبحت مالكه	إن الجمال لدى العشاق مودود
هواك برح بي فارحم فتى دنفاً	ما بين جانحتيه الجمر موقود

وشاعرنا إنساني النزعة في الغرام بعيد عن التعصب في هذا اللون ترى في شعره مشاهد الجمال العربي الذي يغار عليه وتحس طعوم الجمال الأوربي الذي يحظى بنصيب كبير من قصيده حتى بنات (اسرال) اليهوديات يهواهن ويفتن بسحرهن ـ وشدة ولوع شاعرنا بالأوربيات سمة يتميز بها غزله وينفرد بها فنه على أقرانه من شعرائنا الذين تحدثوا في الغزل .

والشاعر فيما ينفرد به لا يعدل في قسمته بين الحسناوات الغربيات جملة ولا يزن بينهن بالقسطاس المستقيم إنّما يخصُّ بذلك الرجحان بنات روما اللاّتي استحكمت صلتهن بروحه فنفث فين السحر الحلال يتهن به بين الحسان من بنات الدنيا .

عندي من الشعر مايحلو إذا لمحت — عيني أو انس روما في طرابلس
هن اللواتي ملكن الحسن أجمعه — وصرت منهن ذا وجد وذا هوس

ويقول . . .

من أهل روما غزال — بحسنه قد تفرد
أثار في القلب ناراً — كخده المتورد
يا من سطا بلحاظ — تحكي مضاء المهند
صل مدنفاً كاد يقضي — عليه ذاك التودد

تلك هي النبرة السائدة في هذا الباب ، شاعر يهوى الجمال بممارسات عفة وتخيلات بريئة وقد جارى شاعرنا القدامى في المعانى والألفاظ وأخذ بمذهب بعض النقاد الذين لا يرون حرجاً في تصوير المحسات بإبراز الخصائص الجسمانية للمرأة فالفيناه يفعل في تصويره كما يفعل النحات

والرسّام في التجسيم بما يعمد إليه غالبا من الحديث بألفاظ حسيّة صارخة ، فالمعشوقة التي يميل إليها ويعجب بحسنها :

لها مبسم زانه لؤلؤ ووجه له منظر باهر
وخصر خفي كعشاقها وردف كحقف النقى ظاهر

وهي :

غيداء ضامرة الحشا ممكورة عجزاء ريا الردف كالحقف الوثير

وفيها من أوصاف الأقدمين للمحبوبات غير قليل :

قفا بي فهذا ربع مية عامر وقولا لها هذا المتيم زائر
خدلجة هيفاء من نور وجهها وغرته بدر لسماءه نائر
لها قامة كالخيزرانة لدنة وردف بديع الشكل كالحقف ظاهر

ومن روائع غزله تلك الحيرة بين غادتين فاتنتين أسرتا قلبه وتركتاه في ذهول :

بين جنا ومرينا صرت للحب رهينا
في هوى كلتيهما صرت لاشك سجينا
إن قلبي قد غدا ما بين هاتين طعينا

وهكذا نرى أن هذا الباب الغزلي بالرغم من أنه يمثل شعر صنعة ومحاكاة وتقليد ولا يدل على عاطفة هوى عميقة أو تجربة عاطفية صادقة إلاّ أنه قد برز به شاعرنا كما برز البارودي بهذا اللون بما أشاعه فيه من وصف رقيق وتصوير راق للجمال الأخّاذ الآسر .

فخر وحماس

يجاري شاعرنا الأقدمين وأُستاذه البارودي في فخرهم وحماسهم ويخصص لذلك مثلهم باباً في ديوانه ينحله بشعر قوي رصين محاكياً فيه الفحول في الصياغة والمعاني مستعيناً بالبواعث التي تعين على ذلك .

فهو من صيابة العرب الأقحاح الذين تعلقوا بالعلا والمعالي وأخذوا من شارات الكرامة والعزة بكل ما يزينهم ويعلي مراتبهم ويجعلهم غرة في جبين الدهر كما أن له من مواقفه

الوطنية المشرفة ونضاله في سبيل استقلال بـلاده ما يشفـع لـه في هذا الحماس والفخر والتباهي .

وشاعرنا لا يقـف بالفخر عند عشيرتـه بل يشيـد بقومـه وأمته وبني بلاده الذين حرص على دعوتهم إلى تجديد مجد الآباء لإقران الطارف بالتليد .

ولشاعرنا من لغته القوية المعبرة التي تـلائم هذا اللون سند ينهض به للتحرير والتحبير وينأى بـــه غالباً عن القصور بما وفره من إختيار الكلمات القوية الدّالة والتراكيب المتماسكة . وإنه ليبلغ مكانة جيدة في المعنى والمبنى من هذا اللون في قصائده « شكوى الزمان » « أنا والمعالي » « و شكوى » وفي معارضته الرائعة للكميت بن زيد الأسدي التي يقول في مطلعها :

سواي بغير المكـرمـات يشبب ... وغيري له في منهج الغي مذهب

ولست بحمد الله من معشر غدت ... أكابرهم في الخزي تطفوا وترسب

ولكنني ترب لكل فضيلـة ... يحن إلى العليـاء دومـاً ويدأب

أخو همة يستسهل الصعب كلها ... تشعب أمـر أو تباعـد مطلب

وإحساس شاعرنا بأنه رغم ما يملكه من أصالة وشرف ومواهب ومواقف معاند ومحارب من الأيام وأبناء الزمان ، ونظرته التأملية لهذه الدنيا التي تُعلي الوضيع وتحط من منازل الكرام قد أعطى لهذا الباب شحنة قوية من الحماس والفخر .

حتام لا يرعى الزمان مقامي ويعوقني عن مطلبي ومرامي
وإلام أخمل والنباهة ديدني والمجد طبعي والعفاف وسامي
وأنا الذي بين الورى انتشرت منا قبه وفضلي كل يوم نام
لا عيب بي غير المروءة والوفا وسمو منزلتي عن الاقوام
أو همة طماحة نحو العلا ما قصرت في الجد والإقدام
أو عزمة كالعضب وهو مجرد تعنو لها الآساد في الآجام
أو نسبة لعطارف سادوا الورى بالعدل والإنصاف في الاحكام

وقد يستعين شاعرنا على أشكال من قوته الفنية في هذا الباب ببعض المعارضات والتشطيرات لأبيات بعض الفحول وقصائدهم على نحو ما نجده في تشطيراته للأبيوردي والغزي ومعارضته للكميت والمعري .

وإذا كان شاعرنا يعد في هذا الباب المجلى والسابق بين

شعرائنا الليبيين لما قدمنا فإنه لا يبلغ مع قوته تلك مستوى فخر وحماس أستاذه البارودي الذي (أبدع في الحماسة وأعادها قوية مشبوبة الاوار لمّاعة السيوف كما كانت في عهد البطولة العربية الأولى) لأن البارودي وهو الرائد كان - كما هو معروف - فارسا وصاحب سيف وقلم خاض الحروب وصاول الفرسان ممّا أعطى لشعره في الوصف دفقة قوية من الحيوية والفنية والومضات الإيحائيه ولا أحد يزعم بأن شاعرنا كذلك ولأن شاعرنا أيضاً لا يسير دوماً في خط واحد من الجزالة والقوة التي أشرنا إلى ملامح منها - بل نجده أحياناً ينحط ويهوى بقصائده صوب الضعف والتخاذل كما في قصيدته « بني بلادي » و « عبر الأيام » كما أن قصائده الحماسية تتخذ من بعضها طابع الشعر التعليمي والوعظ والإرشاد كما يطالعنا في قصيدته « الذكرى أجمل شيء » .

خاتمة

وبعد فتلك رحلة عبر الزمان والوجدان في حياة أديب مناضل من أعلامنا الليبيين المعاصرين حاولت فيها أن أبين بإنصاف وموضوعية عن مكانته بين أدبائنا ومناضلينا ودوره السياسي والأدبي في تاريخنا الحديث الذي نعتز به ونفخر .

وهي كما رأيت محاولة تقييمية بنيت على أساس العرض التاريخي في ترجمة مناضل ولد في أواخر الربع الأخير من القرن التاسع عشر الذي حفل بالأحداث السياسية الكبرى وقد واجه فيها شاعرنا ومنذ بداية هذا القرن مسؤوليات تحمّلها جيله المكافح وقد بينا أن بواعث كثيرة كانت ترفد هذا الأديب في النهوض بواجبه نحو أمته ووطنه وقد عرف التاريخ لشاعرنا منزلته ودوره فلهج بأياديه وأدواره كما بنيت محاولتي على الدرس النقدي الذي حاولت من خلاله الإبانة عن مذهبه الأدبي وأبعاد فنه ومكانته بين شعرائنا الليبين وشعراء مدرسة البعث والإحياء بعامة مع الإشارة إلى ما أسهم به مترجَمنا في مجال النثر والمقالة وأنا آمل من وراء هذا الجهد أن أضيف به شيئا جديداً لمكتبتنا وأن يقوم شاهداً على الوفاء للشاعر المناضل أستاذنا أحمد الفقيه حسن أحسن الله جزاءه .

مختارات من شعره :

من قصيدة « الجندي في ميدان القتال » بتاريخ صفر سنة ١٣٦٣ ـ سنة ١٩٤٤ م .

هب للحرب فلباها انقيادا ودعاه المجد فانساب ارتيادا

لم يهب في حومة الحرب الردى فهو جندي بها يشفي الفؤادا

جندته أمة كان لها لابتناء المجد في الدنيا عتادا

قد أطاع الامر وانقاد إلى ساحة الحرب ولم يأل جهادا

فهو في الميدان ليث ثائر يطلب العز ولا يرضى اضطهادا

لا يبالي أن يرى من فوقه طائرات تملأ الجو سوادا

تقذف الاثقال من بعد بلا رحمة منها ولا ترعى العبادا

فهي كالعشواء في غاراتها لا تراعي في مراميها السدادا

إنما الجندي من نيرانها شعلة في الحرب تزداد إتقادا

هام شوقا في ميادين الوغى عاشق كانت له الحرب سعادا

لايبالي نزل الخطب به أو به الخطب غدا يرجو ازديادا

راقه أن يطوي الارض وأن يجعل الترب فراشا ووسادا

سودته همة بين الورى كانت العون له فيما أرادا

رثاء الاستاذ الأكبر الشيخ عبـــد الرحمن البوصيري الأخضري سنة ١٣٥٤ ـ سنة ١٩٣٥

ما بعد فقدك للشريعة مرجع يا أيها الحبر الاجل الاروع
اليوم تندبك العلوم ولم تزل عين الفضائل بعد فقدك تدمـع
حققت علـم الاولين بهمة حذاء لا تخذو ولا تتزعـزع
ونشرت في الشعب الطرابلسي ما يحيي النفوس من العلوم ويرفع
آثارك الغراء واضحة السنا ما بيننا وربيـع فضلك ممرع
في العلم قضيت الحياة محققـا والعلم أوقع في النفوس وأنفع
لم تأل في التعليم جهدك ناشراً ما ردد العلماء قبـل ورجعوا
أنت الذي ازدهرت طرابلس به وبفضله اعترف الافاضل أجمـع
لا غرو إن مادت لفقدك أرضهـا وتزلزلت فعظيم خطبك مفجـع
ياأيها الشيـخ الجليل ومن لـه قدم إلى نشر المعارف تسرع
هل بعد موتك للحديث محـدث يروي له السند الصحيـح الارفع
أو بعد فقدك للدروس محقق يستلهم القول الطريف ويبدع
قد عطلت تلك الدروس وقدعفت تلك المجالس فهي أرض بلقـع

« الخل الوفي » شعبان سنة ١٣٤٣ ـ مارس سنة ١٩٢٥

من لي بخل مخلص في وده ... دوماً وليس بمخلف في وعده
يرعى المودة إن دنا وإذا نأى ... فهو الوفي بقربه وببعده
يعروه ما يعرو الصديق من الاسى ... ويرى مسرته مسرة نده
وإذا ألمت لمة بخليله ... كان الكفيل بنصره وبسعده
إنا لفي زمن تنكب أهله ... عن سهل اخلاص الوداد ونجده

« بنو عثمان » شوال سنة ١٣٤٢ هـ ـ مايو سنة ١٩٢٤

قفا بي على ربع خلا بعد عمران ... وجودا بشؤبوب من الدمع هتان
فقد أقفر الربع الذي كان آهلا ... ولم يبق منه غير آثار أركان
تذكرت عيشاً كان لي صافيا به ... وأيام أنس مثل أحلام وسنان
فجدد تذكاري اشتياقي ولوعتي ... وهيج ما ألقى من الوجد أشجاني
نأت عنك يا ربع الاحبة بعد ما ... قضيت رغد عيشك في فنائك فينان
ألا يا بني الإسلام هبوا ووحدوا ... قواكم فقد يأتي الخلاف بخسران
عدوكم يسعى لتشتيت شملكم ... بهمة ساع للدسائس يقظان
إلام نرى الاعداء تبدي تضامنا ... ولم يختلف في نصر بعضهم إثنان
ونحن رقود لا تعاضد بيننا ... كأن لم نكن في الدين يوماً بإخوان
أما آن للشرقي أن يدرك المنى ... ويمشي إلى العلياء مشية عجلان
يفك قيود الغرب عن كل مسلم ... ويبني على ما شيد السلف الفاني

« ذكرى الصّبا » ربيع الآخر سنة ١٣٥٥ هـ - يوليو سنة ١٩٣٦

ذكرت الصبا فازداد شوقي إلى الصبا ... وحركت الذكرى من الوجد ما خبا
وقمت أناجي اليوم عهد شبيبتي ... لعلي ألقى منه أهلاً ومرحبا
زمان الصبا لا زال ذكرك عاطرا ... يمر على الاكوان شرقاً ومغربا
لذكرك أحلى من جنى النحل في فمي ... وألطف عند النفس من نفحة الصبا
فلا زلت مشتاقاً لعهدك ذاكراً ... ولا زلت في عيني النعيم المحببا
بك العيش في الدنيا يروق ولم يكن ... بغيرك راق العيش طعماً ومشربا
مضيت وما زالت لذكراك حرمة ... لدي بها أضحى الفؤاد معذبا
شبابي أرى فيك الحياة وعزها ... وعز حياة المرء لا زال طيبا
حياة الفتى في كل عصر شبابه ... وعدته ان رام في الدهر مأربا
أسفت على ماضي الشباب وعهده ... وكيف وخير العمر مني تقضبا
سلام على الماضي سلام مودع ... يرى الصدق والإخلاص في الود مذهبا

« تشبيب » المحرم سنة ١٣٤٣ هـ - أغسطس سنة ١٩٢٤ م

يا ظبية ملكت لبي بمنظرها ... ترفقي بأمرىء من بعض قتلاك
لحاظك الفاترات السود ما فترت ... عن طعن قلب وفي ليس ينساك
سبيت عقلي بمرآك الجميل ولا ... تطيب لي عيشة إلا بمرآك
لا أنثني عنك يا لمياء حيث أرى ... شفاء نفسي رضاباً في ثناياك
يا ربة الحسن كفّي الهجر عن دنف ... إليه قد أردف الاشواق ردفاك
عدي بوصلك يا ذات الجمال فتى ... جنت عليه بوجد العشق عيناك
« أنت الحياة لنفسي والنعيم لها » ... لذاك أصبحت طول الدهر أهواك
ياليت شعري متى يوم الوصال لكي ... أبث فيه أحاديث الهوى فاك

من الشعر القصصي : « الصياد والقبَّرة »

اسمع أحاديث ما يروى من الحكم ... واختر لنفسك منها أطيب الكلم

فحكمة القول بين الناس ما انتشرت ... إلا وكانت شفاء النفس من سقم

وربما كانت الامثال شاردة ... فاحرص على صيدها في السهل والعلم

ونبه الفكر وافهم ما يقال وما ... قد جاء في معرض الامثال من قدم

واسمع حكاية صياد وقبرة ... فيها تجلى لنا الغالي من الحكم

روى الرواة لنا عنها وقد وقعت ... في قبضة لا مرىء للصيد ملتزم

وحدثوا أنها قالت لصائدها ... مقالة لم تزل تتلى بكل فم

وخاطبته وقالت لست من سغب ... أكفيك يوماً ولا شهوة القرم

فهل تحررني من بعد ما ملكت ... يداك رقي لكي تعزى إلى الكرم

هناك أذكر أمثالاً مهذبة ... ثلاثة نورها كالبدر في الظلم

أقول أولها حالاً وثانيها ... إذا غدوت على الاشجار من أمم

وفوق ذا الجبل العالي أُتمم ما ... أبقيت منها فهذا الشرط فاحتكم

فقال قولي فقالت لا تكن رجلاً ... مصدقاً كل ما يدعو إلى التهم

وبعد حلت على الاغصان من شجر ... وأصبحت تطرب الاسماع بالنغم

وقالت اسمع من الامثال ثانيها ... إياك عن فائت تغدو أخا ندم

وبعد ذا حلقت في الجو وارتفعت ... حتى استقرت بذاك الطود في القمم

وخاطبت ذلك الصياد قائلة ... لقد اضعت بتركي خير مغتنم

فلي بحوصلتي ياقوتــة وزنــت عشرين أوقية تكفيك من عدم

فعندمــا سمع الصيــاد قولتهــا أبدى الندامة عن ماض ومنصرم

وقال قولي من الامثــال ثالثها وراقبي بيننا ما كان من ذمم

فعند ذلك قالت وهي ضاحكة يا من غدا عن صحيح القول في صمم

اراك اهملت ما قد مر من حكم فلست من بعدها بالمدرك الفهم

ولم تع المثلين الاولــين وإن وعيت آخــر أقــوالي ومختتمي

« قلمــــي »

قلمي يطاوع ما يقــول لساني وكلاهما نهضا بشرح بياني

هــذا له سحر البيان وذاك في تدبيجــه يسعى بغيــر تــوان

عشق الصحيفة وامتطى صهواتها قلم جرى طلقــا بغير عنــان

ستلهم القول الطريف ولم يزل يرعى انتقاد قريحتي وجناني

محتـــوى الكتـــاب

تصويب أخطاء

ص	س	الخطأ	الصواب
٢٧	١	المختار	مختار
٢٨	١٠	الزناتي	الزنتاني
٣٠	٥	لأغاني	الأغاني
٣١	١٠	سنة ١٩٢٠ ـ سنة ١٩٤٣	سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٤٣
٣٣	٧	نستطيع تبين	نستطيع أن نتبين
٣٥	٦	ولكنّنا	ولكن
٣٥	١١	محمد شوكت المبروك	محمود شوكت المبروك
٤١	١٤	فيتفاعل	ليتفاعل
٤٤	١١	والبترم	والتبرم
٤٧	١ - ٢	دار البارود	السراي
٤٧	٢	إثارة الشعب	إثارة الشغب
٤٧	٩	صحّ فيها	صحّ ضدّها
٤٧	١٠	أبى فريده ـ إذ لم يمض	أبى ـ إذ لم يمض
٤٨	١٠	سنة ١٩٤٦	سنة ١٩٥٤
٤٨	١٢	وعميلة	واهنة
٤٨	١٣	منهم	منها

تم طبع هذا الكتاب
في رمضان 1396 / سبتمبر 1976
بمطبعة المنار
تونس

عدد الناشر : 76 . 5 . 101

الاستاذ الشاعر أحمد الفقيه حسن أديب عربي مناضل من ليبيا حمل منذ أوائل هذا القرن راية الاصلاح في التعليم والادب ، ونهض بواجب الدفاع عن وطنه وأمته وقدم على درب عمره الطويل أعمالا خالدة .

وتعد هذه الدراسة التي يتقدم بها أحـــد تلامذه بأسلوبها الموضوعي الطريف الذي يقوم على العرض التاريخي في ترجمته والموقف النقدي في بيان منزلة أدبه علامة عرفان ووفاء، وأول عمل يدرس هذه الشخصية ويوصل دورها الفعال في حياتنا الفكرية المعاصرة .

المؤلف

الدار العربية للكتاب المقر الرئيسي : عمارة « وفاء » شارع غومة المحمودي ص . ب 3185 طرابلس ـ الجمهورية العربية الليبية . الهاتف 47.287 . الفرع الرئيسي : 39 شارع الحبيب بورقيبة تونس العاصمة ـ الجمهورية التونسية ـ الهاتف 430 . 259 .

الثمن [illegible] د . ل [illegible] د . ت

مطبعة المنار . تونس